النبأ الزهر
من
شيوخ ورجال العصر

النَّبأ الزَّهْر من شيوخ ورجال العصر

مضى ركب الإسلام، على ظهر مركب الأيام، حتى رَسَتْ به على شاطئ القرن. الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وقد تبدّلت الشرائع، وتغيّرت السنن، وعمّ الجهل وطمّ، فالإسلام لا يحكم، وأهله عنه غافلون، قد لعبت بهم الأهواء، وسار بهم الشيطان في كل واد، وتداعت علينا الأمم وتكالبت، وأخذتنا من كل حدب وصوب، وأصبحنا لقمة سائغة لشذاذ الآفاق وحثالة اليهود.

وفُرضت على المسلمين الانتدابات والاستعمارات، وعلماء الدين بين مغلوب على أمره لا ينادي بشيء، وبين منقاد علت الغشاوة عينيه، ولكن الأمر لم يخل من مصابيح تبين الهدى من الضلال، والحق من الباطل، والنور من الظلام فقاموا للّه عز وجل وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، كان دينهم عندهم محفوظًا في شغاف قلوبهم، أغلى عندهم من كل طريف وتالد، فدعوا الناس للرجوع إلى أصل الدين، ونقاوة هذه العقيدة لتكون بيضاء نقيّة، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

واستيقظ القوم على أصوات تنادي بالإصلاح والصفاء، تهيب بالمسلمين بالرجوع إلى ماضيهم المشرق، واستعادة مجدهم التليد، كانت هذه الأصوات عنادل وسط غربان التغريب، ويوم ما يسمّونه بالتنوير تصوّت بالأمة لتدلها على الطريق المستقيم الفوّاح الذي يعبق بالزنابق، ويثري قنوات الروح والفكر خصبًا ونماء.

هؤلاء الأفذاذ يبقى دور غيرهم قاصرًا أمام وقفاتهم الواهبة لأمتهم إرثًا عريضًا لا يكفي وقوفنا أمامه مبهورين، بل نقتفي آثارهم عسى أن نكون

فخورين بمآثرهم ورفدهم، عاملين على منوالهم.

الدين النصيحة

كل إنسان يؤخذ منه ويردّ إلا رسول اللَّه ﷺ.

لله در ابن تيمية الرباني حين يقول:

«إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا»[1].

فنسأل اللَّه العفو والمغفرة لأهل التوحيد ونبرأ إلى اللَّه من الهوى والبدع، ونحبُّ السنة وأهلها، ونحبّ العالم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن».

ونحن نقبل الحق من علماء المسلمين، ونبرأ إلى اللَّه تعالى من زلاتهم وأخطائهم ـ خاصة في الأمور العقدية؛ لأن الحق لا يُعرف بالرجال، بل هم يُعرفون به، ونحن لا ننتصر لإمام، أو شيخ، أو طائفة انتصاراً مطلقًا، غير رسول اللَّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

ومع هذا ننصف الأكابر ونعترف بفضلهم ـ وننبه على خطئهم نصيحة، لا تتبعًا للزلات فالدين النصيحة.

ولله در ابن القيم حين يقول: والبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم.

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/٢٠٩).

يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

«لا ريب أنه يجب على المسلمين توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم على الحق وتعاونهم على البر والتقوى ضد أعداء الإسلام كما أمرهم اللَّه سبحانه بذلك بقوله عز وجل ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وحذرهم من التفرق بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ولكن لا يلزم من وجوب اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق واعتصامهم بحبل اللَّه ألا ينكروا المنكر على من فعله أو اعتقده من الصوفية أو غيرهم، بل مقتضى الأمر بالاعتصام بحبل اللَّه أن يأتمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويبيّنوا الحق لمن ضلّ عنه أو ظن ضده صوابًا بالأدلة الشرعية حتى يجتمعوا على الحق وينبذوا مخالفه، وهذا هو مقتضى قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومتى سكت أهل الحق عن بيان أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين لم يحصل منهم ما أمرهم اللَّه به من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعلوم ما يترتب على ذلك من إثم الساكت عن إنكار المنكر وبقاء الغالط على غلطه، والمخالف للحق على خطئه، وذلك على خلاف ما شرعه اللَّه سبحانه من النصيحة والتعاون على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واللَّه ولي التوفيق»[1].

(١) انظر «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ ابن باز (ص٣١، ٣٢) ـ نشر دار الإفتاء.

❑ ويقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

«نعم يجب علينا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه من نصر الحق والدعوة إليه والتحذير مما نهى اللَّه عنه ورسوله ﷺ. أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه بل هو محل تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها فالواجب عدم الانكار فيها من بعضنا على بعض، أما ما خالف النص من الكتاب والسنة فالواجب الإنكار على من خالف النص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]»[1].

* وقفة قبل ذكر الأعلام والرموز الإسلامية:

حين نسطر لرجال من رجالات الإسلام كانت لهم مواقف عظيمة في خدمة الإسلام والدفاع عنه، والذود عن حياضه، وربما شاب منهج بعضهم شائبة أو أكثر من البعد عن منهج السلف في نقطة أو نقطتين.. وعزّ وجود مثال يمثل المنهج السلفي بكل شموله كشيخ الإسلام ابن تيمية.. وأصدق مثال لذلك السيد محمد رشيد رضا.. الذي كان يُطلق عليه أبو السلفية، ولكن غابت عنه أشياء أو خالف منهج السلف في أشياء مثل إنكاره للمهدي والمسيح الدجال ونزول المسيح رغم علمه وتبحره في فنون العلم، فكيف بمن غلبت عليه الدعوة إلى اللَّه وهمومها وكثرة السفر والترحال، فحال ذلك دون التمحيص والعلم.. والنصح للَّه ورسوله وأئمة المسلمين ودعاتهم يوجب علينا التجرد للَّه، وإنصاف الدعاة إلى اللَّه، مع بيان خطئهم.. فقد تجد

(١) المصدر السابق (ص١٤، ١٥).

الرجل سدًّا منيعًا وحصنًا حصينًا للإسلام في جانب، ويُرد عليه في جانب آخر لا نوافقه عليه مطلقًا.

❑ والنصح للّه، والنقد النزيه أو الرد البناء فهو في طليعة العوامل التي صانت الأمة الإسلامية عن الانحراف عن الجادة.

«والذين يحاولون أن يخدموا الدين بكل جدّ وإخلاص، ولا يريدون إلا إعلاء كلمة اللّه ورفع شأن الإسلام، وينشدون الحق والصواب، ويحرصون على تصحيح «الفهم الديني» وتصعيده وإكماله، والحق هو القياس الوحيد لديهم ـ أولاً وأخيراً ـ لا جماعة من الجماعات ـ مهما كان وثيق الصلة بها، ولا فرد من الأفراد ـ مهما كان عظيمًا عنده ـ فإنهم دائمًا يتلقون النقد الإيجابي البنّاء، والآراء والتوجيهات المخلصة مهما خالفت آراءهم، بصدر رحب، وقلب منشرح.

وكانت هذه الحسبة العلمية المخلصة النزيهة، في طليعة العوامل التي صانت الأمة المسلمة عن الانحراف عن الجادة، والتحريف للدين والشذوذ الجماعي، والعثرة المردية، في تأريخها الطويل، ورحلتها الشاقة الشاسعة في ميادين الاجتهاد، والتجربة، والاستنباط والاستنتاج، وإجهاد الفكر والرأي.

وقد فقدت هذه الحسبة العلمية الدينية أو ضعفت ضعفًا كبيراً في ديانات أخرى.. ولذلك شدّدت الشريعة الغراء على وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بهما في كل زمان ومكان، وحذّرت من التواني فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان، وجعلت «كلمة حق عند سلطان جائر» أفضل الجهاد، وقام به المسلمون، وخصوصًا علماؤهم بهذه الفريضة في كل زمن فاسد وحكم جائر، وسمح له أمير المؤمنين عمر لكل ضعيف ومغمور ورحّب به، فقال: «لا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذ

لم نقبل»[١] .

❑ وقال مرّة: «امرأة أصابت ورجل أخطأ»[٢] .

ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ أوزلة، والإرشاد إلى الأنفع الأصلح، أو الأقوم الأسلم، تبوأ من تعرّض لهذا الخطأ الاجتهادي أو السهو والنسيان اللذين هما من خصائص الإنسان مكان قيادة، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعية للأمة، أو سلامة نية، أو غناؤه في كفاح أو نضال، فإن كان الصحابة ﷺ ينبّهون أفضل الرسل وخير البشر ﷺ على السهو، وقد قال ذو اليدين لرسول اللَّه ﷺ وقد صلّى الرباعية اثنتين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول اللَّه[٣] .

❑ وعزل أمير المؤمنين عمر ـ وهو أعرف بمصالح الإسلام والمسلمين ـ سيدنا خالداً في معركة اليرموك، وهي المعركة الحاسمة المصيرية في تاريخ الإسلام، ونصب أبا عبيدة مكانه، ولو أخذ المسلمون في ماضيهم عدم إحداث التشويش في صفوف المسلمين بعين الاعتبار، وكفوا عن التنبيه على الزلل والخطأ، لانقطع هذا التيار الحيوي المبارك من حركة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحسبة في الدين، والشهادة بالحق، عن جهاز الأمة الاجتماعي والخلقي، ووقف القلب عن توزيع الدم الصحيح إلى الشرائين والعروق، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم والرأي، وانجراف العامة للتيارات، واختفاء كثير من حقائق الدين، أعظم وأجلّ من اعتراف هذا القائد أو الإمام أو العبقري بخطئه في التعبير، أو تقصيره في الفهم أو التفهيم، فإن العصمة للَّه وحده، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردّ إلا

(١) «كتاب الخراج» للإمام أبي يوسف (ص٧).
(٢) «نيل الأوطار» (٦/ ١٧٠).
(٣) متفق عليه.

رسول اللَّه ﷺ»[١] .

«معلوم أن التحذير من كتاب، أو الردَّ على فكر، لا يعني القدح في صاحبه اللَّهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بعقائد الإسلام، وقواعده، أو كان النقد موجهًا إلى أفضل الناس بعد الأنبياء والرسل، وهم أصحاب النبي ﷺ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وقال فيهم بعد ما علم ما لهم وما عليهم: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وكذلك هناك فرق بين «خلاف شخصي حاقد» و«اختلاف مبدئي هادف» فالأول مذموم، والآخر ممدوح.

«فردّ القالات الضعيفة وتبيين الحق في خلافها بالأدلة الشرعية ليس هو مما يكرهه أولئك العلماء، بل مما يحبّونه ويمدحون فاعله ويثنون عليه، فلا يكون داخلاً في باب الغيبة بالكلية.

فلو فرض أن أحدًا يكره إظهار خطئه المخالف للحق، فلا عبرة بكراهته لذلك، فإن كراهة إظهار الحق ـ إذا كان مخالفًا لقول الرجل ـ ليس من الخصال المحمودة، بل الواجب على المسلم أن يحبَّ ظهور الحق ومعرفة المسلمين له، سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته.

وهذا من النصيحة للَّه ولكتابه ورسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدين، كما أخبر به النبي ﷺ[٢] .

وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدَّب في الخطاب، وأحسن في الردّ والجواب، فلا حرج عليه ولا لوم يتوجه إليه.. سواء كان الذي بيَّن الخطأ صغيرًا أو كبيرًا..»[٣] .

---

(١) «التفسير السياسي للإسلام» لأبي الحسن الندوي (٢٣ ـ ٢٦).

(٢) عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (مسلم رقم ٥٥، والبخاري تعليقًا في كتاب الإيمان).

(٣) «الفرق بين النصيحة والتعيير» لابن رجب (٣٢ ـ ٣٣) باختصار.

ليس كتابنا هذا، إلا حسبة دينَّة، ومحاولة علمية مخلصة إن شاء اللَّه ـ وإن كانت من صغير لكبير ـ تحثّ على مراجعة ما سلف، وتدارك ما فات، وتبحث عن الأصلح الأقوم، والأنفع الأسلم لهذه الأمة، وتحتاج إلى النوعية الواعية من العلماء والدعاة الذين ينتبهون للأخطار والأفكار التي تهدد كيانها من الخارج والداخل على السواء. ولا ريب أن الأستاذ الندوي له في القلب منزلة بل منازل، وهو عزيز، ومثله لا يفرَّط فيه، ولكن الحق أعزّ وأولى من الرجال.

فإن كان له رأي، فليتفضَّل ـ بصدر رحب وقلب منشرح ـ بالنظر في رأي آخر، يمكن أن يكون فيه ما ينير معالم الطريق، ويزيل السحاب السوداء عن شمس الحقيقة.

فلنتق[1] اللَّه عز وجل ـ جميعًا، في عقيدتنا وديننا، ومنهجنا وسلوكنا، ونراجع جميع أمورنا قبل فوات الأوان، والاختبار على مستوى المسئولية[2].

وأختم هذا التمهيد بما ختم به الأستاذ الندوي كتابه «التفسير السياسي للإسلام»، فإنه قال: «إن الإخلاص الصادق، وعاطفة نشدان الحق، وحبّ صيانة الدين عن كل شائبة من التحريف، وإعلاء كلمة اللَّه في الأرض، والإيمان بأن كلاً يؤخذ من قوله ويردُّ إلا النبي المعصوم ﷺ، وكل ذلك سيجعل الإنسان لا يتضايق بهذه الملاحظات والتنقيحات، بل سيتقبَّلها بصدر رحب وقلب منشرح، لما يراها تُعينه على فهم الإسلام، وتفهيمه وصيانته، مما سيدلُّ على أن الغرض هو اتباع الحق ورضا اللَّه لا تضخيم الشخصية، أو تنمية الكلام، أو تحبير الحديث».

* ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

---

(١) اللَّهم لا تجعل أحدًا منَّا إذا قيل له: «اتق اللَّه أخذته العزة بالإثم».

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» (صحيح ـ رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، والبخاري تعليقًا في كتاب المرضى عن سعد بن أبي وقاص).

أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨][1] .

ولله در ابن عثيمين حين يقول:

«وأما الخطأ في العقيدة؛ فإن كان خطأً مخالفًا لطريق السلف فهو ضلال بلا شك، ولكن لا يُحكم على صاحبه بالضلال حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة؛ وأصرّ على خطئه وضلاله كان مبتدعًا، كان مبتدعًا فيما خالف فيه الحق، وإن كان سلفيًّا فيما سواه، فلا يُوصف بأنه مبتدع على وجه الإطلاق، ولا بأنه سلفي على وجه الإطلاق، بل يُوصف بأنه سلفي فيما وافق السلف، مبتدع فيما خالفهم، كما قال أهل السنة في الفاسق أنه مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من العصيان، فلا يُعطى الوصف المطلق، ولا يُنفَى عنه مطلق الوصف، وهذا هو العدل الذي أمر اللَّه به، إلاَّ أن يصل المبتدع إلى حد يخرجه من الملة فإنه لا كرامة له في هذه الحال»[2] .

* حكيم الإسلام.. صاحب المنار.. السيد محمد رشيد رضا.. رائد الإصلاح:

كان من الأعلام المبرّزين والأئمة المشهورين حمل على عاتقه أمر الإصلاح، فصنف وكتب، وألّف وألهب، أنشأ المنار فكانت منارة للعلم والأدب، مدحها المخلصون، وعاداها المبغضون وقد شهد للشيخ رشيد ثلة من العلماء والفقهاء قال شيخه محمدعبده:

فيا رب إن قدّرت رُجعى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفضّ خاتمُ

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا ... (رشيداً) يضئ النهج والليل قاتمُ

وصف العلامة محمد تقي الدين الهلالي الشيخ رشيد رضا بأنه (إمام

---

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ الوجه الآخر من كتاباته للأستاذ صلاح الدين مقبول أحمد (ص١٥ ـ ١٧).

(٢) «كتاب العلم» لابن عثيمين ص(١٩٩ ـ ٢٠٠) طبع دار الثريا.

هذا العصر وحكيمه الأكبر)[١] .

❑ وأثنى عليه شيخ الإسلام مصطفى صبري ـ بالرغم من أنه هاجم بعض آراء السيد محمد رشيد في كتابه «موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين ـ وقال عن كتاب رشيد «الخلافة أو الإمامة العظمى»:

«وأمّا كتاب «صاحب المنار»، ففي غاية الإفادة والإجادة، كما يتوقع من مؤلفه الذي هو فارس خطير في أمثال هذا الميدان، وقد وجّه إلى الحكومة التركية الحاضرة انتقادات ووصايا ودعاهم إلى الصلاح والإصلاح، وقدمهم في الاستعانة والاستخدام لرقيّ الإسلام، فللّه دره في تحقيق المقام واجتهاده في إحياء منصب الخلافة الصحيحة»[٢] .

❑ وذكر الشيخ حسن البنا ـ رحمه اللّه ـ في مذكرات الدعوة والداعية تصديراً لمجلة المنار كتبه الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر جاء فيه: «. . . وكان محبًّا لكتاب اللّه، وسنة رسوله وآثار السلف الصالح، وقف حياته لخدمة دينه، والأمم الإسلامية، وكان شجاعًا في الحق لا يهاب أحدًا ولا يجامل ولا يُحابي، ونشأ على هذا واستمرّ فيه إلى أن لقى ربه»[٣].

❑ وقال الشيخ حسن البنا عن مجلة المنار أنها «من أعظم المؤثرات في خدمة الإسلام المعاصر في مصر وغيرها من البلاد»[٤] ، وحتى بعد أن انهارت المنار رغم جهود الجمعية لانقاذها اعتبر البنا مجلته الخاصة «الشهاب»

(١) «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» لخالد بن فوزي آل حمزة (ص٤٧) ـ مؤسسة قرطبة.

(٢) كتاب «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» للشيخ مصطفى صبري (ص١١٣) ـ تقدم الدكتور مصطفى حلمي.

(٣) «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ البنا.

(٤) «الإخوان المسلمون» لريتشارد ميتشل (ص٤٩٤) ـ ترجمة د. محمود أبو السعود، وتعليق الأستاذ صالح أبو رقيق.

امتداداً لها.

❑ وكتب الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية الذي كان يصف نفسه بأنه «تلميذ حكيم الإسلام السيد رشيد رضا» خاتمة لكتاب السنة والشيعة قال فيها:

«رحم اللَّه أستاذنا حكيم الإسلام السيد رشيد، وأسكنه فسيح جنّاته، فلقد بذل كل عناصر حياته في البحث والمعرفة، وقضى عمره في الصدع بما عرف من الحق، والحرب العنيفة لكل ما عرف من الباطل، ولو أنه وقف على ما وقفنا عليه، وعرف عن الشيعة من كتبهم ما عرفناه[1] لقال أكثر مما نقول، وأعلن بأشد مما نعلن من التحذير من القرب منهم، ومن تقريبهم، لكنه رحمه اللَّه عرّفنا الطريق، وأناره لنا، ودفعنا إليه بكلتا يديه فسرنا على هذا في البحث والتمحيص، ونطقنا بلسانه في الحق نمحصه، ونجلوه من جميع جوانبه ونؤمن به، وندعوا إليه في صراحة وقوة».

❑ وقد ترجم الشيخ محمد بهجة البيطار علاّمة الشام لكتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد وأشاد بالكتاب ومؤلفه، وكان يصفه بالسيد الإمام.

❑ يقول الشيخ المراغي في مدح رشيد: «كان شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبيراً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية، ملما بما في العالم من أصول جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان، فهو ممن أوتي الحكمة ورُزِق الخير الكثير»[2].

❑ وقال عنه الشيخ أحمد محمد شاكر: «أستاذنا السيد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ».

---

(١) كان الشيخ رشيد يعلم الكثير والكثير عن الشيعة.

(٢) «رشيد رضا» للدكتور أحمد الشرباصي (ص١٨٤) ـ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

❑ وقال الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة: «أنا تلميذ السيد رشيد رضا واستفدت منه ما أشكر اللَّه عليه وأشكر أستاذي على ذلك وأترحّم عليه لأجله»[1].

❑ ويقول عنه محمد فؤاد عبدالباقي: «إنه مرشدي وأستاذي»[2].

❑ ويقول عنه محدث ديار الشام وحامل راية السلفية الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ: «السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ له فضل كبير على العالم الإسلامي، بصورة عامة، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بواسطة مجلته (المنار) وقد جاهد في سبيل ذلك جهاداً يُشكر عليه، ويرجى أن يكون أجره مدخراً عند ربه، وبالإضافة إلى كونه داعية إلى اتباع منهج السلف الصالح فيما كانوا عليه من عقيدة وفكر وسلوك، فقد كانت له عناية تشكر بالأحاديث الصحيحة والضعيفة، هذه الأحاديث التي لا يخفى على أي مسلم عنده شيء من الثقافة الإسلامية إنها هي السبيل الوحيد لفهم كتاب اللَّه تعالى فهما صحيحًا، حيث إن كثيراً من الآيات لا يمكن أن يُتوصل إلى فهمها إلا بطريق بيان السنة النبوية وقد نص اللَّه عز وجل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فهذا وغيره من النصوص تؤكد للمسلم أنه لا سبيل إلى فهم القرآن إلا بطريق سنة الرسول ﷺ.

وقد كان للسيد محمد رشيد عناية بالغة بعلم الحديث بحدود مساعدة وضعه العلمي والاجتماعي والسياسي فكثيراً ما نبّه إلى ضعيف بعض الأحاديث من حيث إسنادها، عبر مجلته (المنار) التي أصبحت نواة

(١) «من ظلمات أبي رية» (ص٢٣٧) عن الاحتجاج بالأثر (ص٢٨٨).
(٢) «رشيد رضا» للشرباصي (ص٢٠٣).

طيبة، لفتت أنظار المسلمين للعناية بأحاديث الرسول ﷺ . . . فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة ليطّلع عليها مَن بلغته، فإنني بفضل اللَّه عز وجل بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانيًا يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ عن طريق أعداد مجلته المنار التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم»[1].

---

(١) «حياة الألباني» لمحمد إبراهيم الشيباني (١/ ٤٦):

ولقد سرد الشيخ الألباني بعض ما انتقد به السيد رشيد رضا فذكر منها قضية الإيمان بالغيب، وأن الشيخ محمد عبده رغم تحرره وجهوده في تطوير الأزهر لم يكن كالسيد رشيد رضا من حيث الحرص على نهج السلف الصالح من عقيدة ومنهاج، وعلى الرغم من ذلك تأثر به رشيد رضا في مجال الإيمان بالغيب وضرب مثلاً على ذلك بالجن فقال: «ولعل من الأمثلة المشهورة في أنه كان ينقل عن محمد عبده تفسيره للجن المذكور في الكتاب والسنة بما يقرب الجن إلى العقل المادي المثقف ثقافة مادية، فادّعى أن الجن هي الميكروبات الخفية التي تؤثر في صحة الناس ونحو ذلك، ولا أذكر بأن أحدًا ردّ عليه مبيّنًا خطأه بأن هذا التأويل يشبه طريقة الباطنية والمعتزلة وغيرهم ممن انحرفوا عن الكتاب والسنة بسبب التأويل». ثم تابع الشيخ الألباني انتقاده للسيد رشيد في إنكار الأخير أحاديث خروج المهدي ونزول عيسى واعتذر له بأنه أراد أن يرد انحرافات وتأويلات القاديانية في ادعائهم مهدية ميرزا غلام أحمد القادياني وذلك بإنكار أو تشكيك في بعض الأحاديث التي يتعلّق بها فلا يبقى لهم حجة يدعى بها مدّع أنه عيسى أو مثيله أو المهدي.

ثم قال الألباني ـ حفظه اللَّه ـ:

«لقد أصيب السيد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ بشيء من الاستعجال بإنكار أحاديث = صحيحة معروفة عند عامة المحدثين قديمًا وحديثًا وسلفًا وخلفًا وإن كان الباعث له باعثًا حسنًا، ولكن من المسلم به لدينا نحن معشر المسلمين أن الغاية لا تبرّر الوسيلة» ا.هـ.

* قال الشيخ خالد بن فوزي آل حمزة في كتابه «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» ص(٣٦٨): «وقد قال لي الشيخ محمد الصالح العثيمين علاّمة القصيم عن السيد

❑ وقال عنه الشيخ محمد رشاد غانم ـ وهو من الرواد الأول لجماعة أنصار السنة في الإسكندرية وقرين للشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي: أنه (أبو السلفية في مصر)[١] .

❑ وقال عبدالله الصديق الغماري: المحدث الحقيقي هو رشيد رضا[٢] .

* مجلة المنار دعوة إلى الإصلاح:

❑ قال الشيخ رشيد رضا في مقدمة «التفسير» مبينًا سبب انشائه للمنار: «وأنشأت المنار دعوة إلى الإصلاح»[٣] ، وفعلاً أعلنت المنار أهدافها في

= رشيد رضا أنه كان سلفيًا، وأنه لا يعرف أنه خرج عن مذهب السلف في المسائل التي كتب فيها»، والقول هذا محمول على الجملة، ولكنه على أي حال ـ شهادة من رجل مدقق كالشيخ ابن عثيمين، وأيّد هذا الشيخ الألباني محدث الشام إلا أنه خصّ سلفيته في العقيدة، وذكر لي أنه ربما انحرف في الحديث عن السلفية، ومثل لذلك بإنكار رشيد رضا بعض أحاديث الصحيحين.

(١) «الجماعات الإسلامية» في فكر رشيد رضا لخالد بن فوزي آل حمزة (ص٤٥) ـ مؤسسة قرطبة.

قال الشيخ خالد بن فوزي: «وقد عرضت هذا القول على شيخنا وشيخ مشائخنا العلامة عبدالرزاق عفيفي فأجابني بأنه «ليس على كل حال» وأنه في الجملة سلفي إلا أنه له شطحات، وأحالني على قصة آدم في تفسير المنار في سورة البقرة، وقرأتها عليه، وفيها ملحظ ومأخذ وإن كان السيد رشيد نقلها عن محمد عبده، وأشار إلى اختياره المخالف له في نهايتها، وانظر المنار «التفسير» (ص٢٨٠) وما بعدها الجزء الأول كما أكّد ذلك في مجلة المنار والأزهر وأن ما ورد فيها كان على طريقة أهل التأويل وأنه منها برئ (ص٥٤، ٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص٤٦).

(٣) «تفسير المنار» للسيد رشيد رضا (١/ ١٢) ـ وقال ـ رحمه الله ـ على حديث: «إن للإسلام صوى ومناراً ـ» أي علامات وشرائع، وذكر أن ذلك دفعه لتسمية المجلة بالمنار، حيث قال: هذا وإننا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلاً بأن يكون مبينًا لصوى الإسلام، وناصبا لأعلامه، وموضعًا لنور الحقيقة التي نحتاج إليها في حياتنا العملية والاجتماعية ا.هـ. انظر «فتاوى الإمام رشيد رضا» (٢/ ٦٣٢).

العدد الأول وهي: نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وإقامة الحجة على أن الإسلام دين شامل، وكانت المنار كاسمها منارًا للعلم والإصلاح، وارتفع بها صوت الإصلاح في زمن طويل يمتد إلى وفاة الشيخ رشيد. وأقدم كثير من العلماء والأفراد والجمعيات على مراسلة المنار مشيدين بها.

وانطلق صوت الحق من المنار، فجاء منه التحذير من البدع والخرافات السائدة في المجتمع، وبيّن السيد رشيد أن الإسلام بريء منها، وحمّل العلماء مسئولية انتشارها ووجوب قلعها من جذورها، وبيّن أن العلماء والحكام بمنزلة العقل المدبّر والروح المفكر من الإنسان، وأن صلاح حالهما يصلح حال الأمة، وأن العلماء هم القائمون على الطب الروحاني الذي هو تهذيب الأخلاق، وتقويم العادات، وبيّن لهم الطريق إلى ذلك بأنها طريقة الوعظ والتعليم والخطابة على المنابر، وفي أماكن البدع نفسها، وتحمل المشاق المترتبة على ذلك مع تحلّي الدعاة بالأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية السامية[1].

* الإصلاح في ميدان الفكر والتعليم:

أ ـ المدارس:

نادى السيد رشيد بالإصلاح في مجال التربية والتعليم، فحذّر الراغبين في إصلاحه من تقليد المدارس الحكومية السائدة التي تهدف من تلك المدارس إلى إعداد تلاميذها للوظائف، و«من يرمي بتعليمه إلى هذا الغرض فهو خاسر... وأجدر بتعليم هذا شأنه أن يُسعى في إزالته»[2].

وبيّن رشيد الفنون التي يجب إدخالها لمسايرة ركب العلم والعرفان،

(١) «المدرسة العقلية الحديثة وموقفها من التفسير» لفهد الرومي (١/ ١٧٨) ـ طبع الرياض.
(٢) «رشيد رضا» لإبراهيم العدوي (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

وأصبح المرجع في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة.

والعلوم التي أوصى بها هي: علم أصول الدين، وتهذيب الأخلاق، وفقه الحلال والحرام، وتقويم البلدان والتاريخ، والاقتصاد، وتدبير المنزل، والحساب، والصحة، وعلم لغة البلاد.

ب ـ إصلاح الأزهر:

نادى السيد رشيد بالتحرر من ربقة التقليد، ونصح الأزهر أن يأخذ طريقه في الإصلاح، ولا يكون عقبة في مساره.

ومما نادى به لإصلاح الأزهر، بل لإصلاح أحوال العالم الإسلامي كله، هي محاولة تغيير طريقة تدريس الفقه واستمداده، وتحديث مصادر جديدة تصفي القديم مما علق به قال ـ رحمه اللَّه ـ:

«وإنما غرضنا أن نبين أن يُسر الشريعة، وحكمة التشريع، وكون الاجتهاد رحمة للأمة إنما يُعرف من مجموع كلام المجتهدين، ويفوت من قصر نظره على مذهب واحد من مذاهبهم، وأن طلاب الإصلاح للأمة الإسلامية ما زالوا يقترحون تأليف جمعية من علماء المذاهب المتبعة كلها، تضع للأمة كتبًا في العبادات والمعاملات، تُؤخذ من نصوص الكتاب والسنة، ومن اجتهاد جميع المجتهدين، يُراعَى فيها اليسر ورفع الحرج، ودرء المفاسد، ومراعاة المصالح، ومراعاة العرف، وغير ذلك من القواعد العامة. وهذا الكتاب ـ يعني «المغني مع الشرح الكبير» من أعظم الوسائل لذلك، . . . ونسأله تعالى أن يعيد لهذه الأمة وحدتها وهدايتها، ولن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها»[1] اهـ.

---

(١) «اختلاف الأمة» لرشيد رضا ـ طبع المنار.

* الخصومة بينه وبين أعداء الوهّابية والخرافيين:

نشط الشيخ رشيد في نشر عقائد السلف، وتبيين حقيقة الدين ولا سيما في توحيد العبادة، وكان الشرك قد غلب في عصره على كثير من الناس في مصر وغيرها، وصار التمسح بالقبور مع طلب الحاجات من المقبورين هو الدين، وما خالفه هو الشرك، وصار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فثار السيد رشيد على هذه الأوضاع المتردية، وجرّد قلمه ولسانه ضد المبتدعة من الصوفية، ولم يقنع لأجل وحدة الكلمة بالسكوت؛ لأن الأساس «كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة».

ولما كانت هذه المظاهر الوثنية يستفيد منها شيوخ، وكان لكلام السيد رشيد وأمثاله أثر شديد في سحب البساط من تحتهم، كان لابد لهؤلاء أن يثوروا في وجه الشيخ رشيد معلنين الحرب عليه، وحمل لواء هذه الحرب الشيخ يوسف الدجوي شيخ الأزهر وكانت سلسلة مقالات للشيخ رشيد جمعها فيما بعد في كتاب أسماه «المنار والأزهر»، وأبانت هذه المقالات عن صلابة الشيخ رشيد في الحق، وقوة حجته وسعة علمه.

❑ قال الشيخ رشيد في كتابه «المنار والأزهر»:

«مقدمة تاريخية للرد على مجلة مشيخة الأزهر في تصدي «المنار» للإصلاح ومقاومة الشيوخ له...

إن هذا الكتاب والتخاصم بين مجلة المنار ومجلة مشيخة الأزهر هو تنازع في مسائل من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وطريق فهمها، ودفع ما يرد عليهما من الشبهات العصرية، وما عارضهما من شوائب البدع، فمن حق الأمة أن تعرفه وأن يكون لها حق الحكم فيه»[1].

(١) «المنار والأزهر» لرشيد رضا (ص٤٢).

وهذه المقالات هامة جدًّا.

وإن من أوضح الدلائل على صلابة الشيخ في مواجهة أهل البدع أنه كان لا يملّ من نقد المتصوفة وأهل البدع نقدًا علميًّا منصفًا، ويدلل على ما يقوله بأدلة واضحة من الكتاب والسنة وكان ـ رحمه اللَّه ـ خصمًا شديدًا للمتصوفة الذين أفسدوا الدنيا والدين.

وتكلم عن بدعهم ومعاصيهم ولا سيما في «الموالد» التي يكثر بها الخنا والفسوق[1]، وفي موضع آخر[2] يذكر غلوّ الصوفية في كرامات أوليائهم الدجالية، ويعقد فصلاً طيبًا عن أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان، وينقل من طبقات الشعراني حال الأقطاب الأربعة وأنه باستثناء الجيلاني لم يكن أحد منهم ينفع الناس بعلوم الشرع، وأن الدسوقي كان يكتب بألفاظ غير مفهومة... وكذلك كرامات ولي شيطاني يقرر ألوهية إبليس وذلك في الخطب لما قال في خطبته «وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام!!!» وأن «الشيخ علي وحيش كان قوّادًا للعاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته ويأتي الحمير في الشارع».

وأن الشيخ شعبان المجذوب يقرأ قرآنًا غير القرآن، وهو دائمًا عريان ثم قال: «وأقول إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه يعدّ هذا المجنون من أولياء اللَّه ويترضّى عنه كلما ذكره وإن تكرّر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الإلهية ويعتمد على كشفه فهل نكون مخطئين إذا قلنا: أن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله»، ثم قال: «كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وُجِد في المغرب الأقصى

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٧٢ ـ ٧٦).
(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٤١٥).

في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني صار له طريقة من أشهر الطرق... ثم تكلم وأفاض في فضح ضلالاته ومنكراته وأوراده المبتدعة، ثم تكلّم عن تقليد الباب والبهاء لغلاة الصوفية في دعوى الوحي والنبوة والألوهية، وختم القول بنقول من كتاب الفرقان لابن تيمية.

وما وجد الشيخ رشيد بابًا للرد على هؤلاء المبتدعة إلا فتحه ولا يقتصر الأمر عنده على ما كان خطيرًا بل يمتد إلى أن يشمل إنكاره حتى ألفاظهم مثل الذكر بالإسم المفرد الذي يفعله الصوفية المرتاضون ومقلدتهم المرتزقون.

وقد بحث السيد رشيد في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١] مشابهة الصوفية للنصارى في غلوّهم بشيوخهم ومتبوعيهم[1].

واشتد نكيره على أساطينهم كابن عربي وغيره من أصحاب الوحدة والاتحاد، وذكر أن شيخ الإسلام قد أجاد في الرد عليهم.

ويظهر من فتاوى الشيخ رشيد حرصه الشديد على جمع شمل الأمة ولكن لم يمنعه ذلك من بيان الحق في الأمور التي استُفتي فيها، وهذا المنهج هو الصحيح بخلاف من يرى عدم التعرض لمثل هذه المسائل ابتداءً لأنها تثير الفتنة كما زعموا، ولعمر اللّه كم هدم ادعاؤهم هذا صرحًا للحق، وكم غيّر وأضل قومًا بعد هدى كانوا عليه. وكلامه في ذلك سديد ظاهر الحق أبلجه.

❑ فـ «لا يمكن أن نقف صفًّا واحدًا في وجه أعداء الإسلام إلا إذا صلحت العقيدة من الشركيات والبدع والخرافات والإلحاد في أسماء اللّه وصفاته.

---

(١) انظر «تفسير المنار» (١٠/ ٤٢٥ ـ ٤٤٥).

(٢) انظر «تفسير المنار» (١٠/ ٢٨٧).

* قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام بحبل اللَّه يعني الرجوع إلى الحق وترك الباطل، وإذا كانت المعاصي تخل بصف المسلمين أمام أعدائهم[١] . فكيف بالمعاصي الاعتقادية؟ إنه لا يبقى في وجه الأعداء إلا أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان كما قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك**»[٢] .

❑ وإذا أردت أن تعرف قدر الشيخ رشيد فانظر إلى كلامه عن البدع اللغوية والشرعية[٣] وجاء في كلامه: «فما ذُكِر في السؤال عن الزرقاني من أمثلة البدعة اللغوية صحيح، إلا جعله السلام خلف الأذان، والقرآن خلف الجنازة من المباحات نقلاً عن ابن عبدالسلام، فالأذان عبادة من شرائع الإسلام، ورد بألفاظ معدودة جرى عليها العمل في عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، فلو جاز أن يزاد فيه سلام لجاز أن يزاد في غيره من الأذكار كسبحان اللَّه والحمد للَّه وبعض آيات القرآن، ومقتضى هذه أنه يجوز لكل أحد أن يُغيّر شعائر الإسلام بما استحسن من زيادة أو نقصان، ولم يقل بجواز هذا أحد من أئمة المسلمين المجتهدين، ولو جرى المسلمون على هذه البدعة فعلاً لما بقي شيء من شعائر الإسلام على ما جاءنا به الرسول ﷺ عن اللَّه تعالى، ولصرنا في أديان جديدة كل طائفة أو جماعة أو فرد فيها

---

(١) ومن ذلك ما عاتب اللَّه سبحانه بعضهم بقوله: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ قال الشيخ سفر: وجود شرك الإرادة عند البعض مانع من الانتصار على الأعداء، فما ظنتا بما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر.

(٢) «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ صالح الفوزان (ص٨٩ ـ ٩٠) طبع دار الإفتاء بالرياض.

(٣) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦).

يُخالف فيها سائر المسلمين. ولو جاز أن يُزاد في عبادة الأذان لجاز أن يُزاد في غيرها، كجعل الصلاة الثلاثية رباعية، والرباعية خماسية، وجعل الركوع في ركعة مرتين أو أكثر، والسجود ثلاثًا أو أكثر، وهلم جرا.

وهل يُوجد أحد شم رائحة العلم الديني والعقل يُجيز هذه الفوضى في دين اللَّه؟!!».

* كلامه على بدعة المولد:

وهذه البدعة شغل العبيديون الفاطميون والقرامطة والصوفية الناس بها زمنًا طويلاً وظنوها من القرب المعظمة، فتكلم فيها الشيخ رضا كلامًا هو اللؤلؤ المنظوم[1] إلى أن قال: «وإنما يصح قول الحافظ ابن حجر في كون حفلة المولد بدعة حسنة بشرط خلوّها من المساوئ والمعاصي المعتادة فيها إذا كان القائمون بها لا يعدونها من القرب الثابتة في الشرع، بحيث يكفر تاركها أو يأثم أو يعدّ مرتكبًا للكراهة الشرعية، فإن البدعة التي تعتريها الأحكام الخمسة ويُقال أن منها حسنة وسيئة هي البدع في العادات، وأما البدع في الدين فلا تكون إلا سيئة كما صرّح به المحققون وذكر ذلك الفقيه ابن حجر الهيثمي المكي في موضعين من الفتاوى الحديثية».

❑ وتكلم عن حديث شد الرحال ومخالفة المسلمين له[2].

* التوسل بالأنبياء والصالحين:

وللشيخ رشيد كلام رصين في هذا الباب، قال ـ رحمه الله ـ: «وجملة القول أن التوسل هو التقرب، وإنما يُتقرب إلى اللَّه تعالى بما شرعه على ألسنة رسله لا بأشخاصهم واتباع الصالحين في ذلك لا بذواتهم، وأن ذلك غير

(١) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ٢١١١ ـ ٢١١٥).

(٢) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ٢٠٥١ ـ ٢٠٥٢).

مشروع، ومنه ما هو شرك باللَّه، كدعاء غيره بما لا يدعى به غيره. . . ومنه ما هو ذريعة إلى الشرك، ومنه ما هو معصية. . .»[١] .

* رده على التقليد الأعمى وقوله في المذهبية:

❑ ما أجمل قول القائل:

ولكنــه دين أردت صلاحـــه . أحاذر أن تقضى عليه العمائم

هاجم بعض الشيوخ السيد رشيد رضا في تحرره من ربقة التقليد، واعترض عليه الكثيرون، ولما كان الحق الذي لا مرية فيه أنه لا يحق لأحد أن يقدم قولاً لأحد علماء الأمة أو غيرهم على قول اللَّه سبحانه وقول النبي ﷺ، لذا نجد الشيخ رشيد ينبري للرد على المقولة الساقطة بوجوب التقليد لكل أحد[٢]، وهذا صحيح في حق من ليس أهلاً لمعرفة الدليل وهو من العوام الذي لا يعرفون الأدلة ولا يميزون بينها.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«وأما سؤال المعترض هل نطلق الحرية للآراء والأفكار في الأخذ من الكتاب والسنة أم نعملهم على رأى واحد، وإيراد على كل واحد من طرفي الترديد ما أورده، فإننا نجيب عنه بما ليس في حسبانه فنقول: لا شك أن الكلام في المسائل الخلافية، وقد كان السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين يطلقون الحرية في المسائل الاجتهادية لكل أحد في المسائل العلمية المتعلقة بالشخص لا بالحكومة وكانوا لا يرون ذلك موجبًا للخلاف والتفريق

---

(١) انظر «الفتوى في فتاوى الإمام رشيد رضا» (٥/ ١٨٦١ ـ ١٨٦٣)، وانظر «تفسير المنار» (٦/ ٣٧١) عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

(٢) انظر الفتوى في «فتاوى الإمام رشيد رضا» (١/ ٣٧٨).

ولا للتنازع والتقاطع كما حدث بعد التزام المذاهب والتعصب لها بل كان كل يعذر الآخر فيما خالفه فيه...» إلى أن قال: «وأما قوله: أنه يعلم قطعًا أن اتباع الأئمة الأربعة كانوا كذا وكذا فنقول فيه: «أن المنقول عن الأئمة وأصحابهم تحريم التقليد ومنعه ووجوب الأخذ بالكتاب والسنة وستجد طائفة من هذه النقول عنهم في كتاب محاورات المصلح والمقلد، ولكن لم يتبعهم في هذا كل من انتمى إليهم لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة، فإن كلام الأئمة الأولين صار مجهولاً حتى للمنقطعين إلى العلم، والأستاذ الإمام يسعى في إحياء كتبهم وهو رئيس جمعية أُلفت لهذا الغرض. وأما العوام فأكثرهم لا يعرف الآن من الدين إلا بعض مسائل الخلاف بين المذهب الذي يدعيه والمذهب المنشر في بلده كانتشار مذهب المدّعى. ثم إن أكثرهم لا يعلمون إلا القليل مما يعلمون من مسائل الخلاف والوفاق. والمعترض وأمثاله لا يخافون من هذا الضياع للدين ولكنهم يخافون من الدعوة إلى الكتاب والسنة، والاهتداء بها بحجة الخوف على المذاهب التي لم يبق منها إلا الجدل فيما بقي من دروس المقلدين...» ا.هـ.

*** مع الشيعة:**

حاول الشيخ رشيد أن يأخذ بيد مريضهم وينتشله من أحوال التشيع إلى نور السنة، وظهرت أباطيل الشيعة مانعًا دون هذه الغاية بعد أن دعاهم إلى التجرد للحق ولم يسكت على أباطيلهم بحجة تجميع الكلمة بل صدع بالحق في وجوه هؤلاء.

يقول: «فهل يريد المستنكر من إخواننا أن نسكت لهؤلاء على هذا الطعن، فيكون سكوتنا حجة على أهل السنة كافة، ومعصية يأثمون بها كلهم، ولا يزيد الشيعة إلا يقينًا بضلالهم وبعدًا عن الاتفاق معهم؟!»[1].

(١) «السنة والشيعة» للشيخ محمد رشيد رضا (٢/ ١١٦).

لم يسكت الشيخ رشيد على منكر عند الشيعة أو شرك يراه، وما كان ينتهي من رد إلا رأى مقالات وكتبًا أخرى تحتاج إلى رد وإبطال، فلربما نشر رده عليهم وحده، وربما جمع إلى ذلك ما ألفه غيره، كما نشر رسالة الألوسي في الرد على العاملي كاملة، قال بعد تكالب أهل الضلال والزيغ من الشيعة عليه «وإنا قبل أن نتم الرد على ذلك الكتاب اطلعنا على كتاب آخر لأحد كبرائهم العاملين (هو الشيخ الكبير السيد عبدالحسين الشهيد).

جعله الكلمة الأولى، من ثلاث كلمات رافضية شعوبية، هي كما يظهر من أولها ـ أضرّ على دين الإسلام والأمة العربية من دعاة الثالوث الهندوسي وثالوث النصرانية. وأما المؤلف فإنه لم يراع قاعدة مذهبهم في التقية، أو في مراعاة، بل صرّح فيها بتضليل أصحاب رسول اللَّه ﷺ من المهاجرين والأنصار، والطعن في دينهم وطاعتهم للَّه ورسوله ﷺ وجهادهم في سبيله، وبالطعن في حفّاظ السنة ومدونيها، وفي الأمة العربية برمتها من صدر الإسلام إلى اليوم أقبح الطعن وأكذبه وأصرحه؛ لأن عصبيته الرافضية سوّلت له أن الغلو الممقوت في علي رضي الله عنه وكرّم وجهه، لايتم إلا بذلك، فهو قد كشف قناع الرفض، بل ألقى رداء الحياء وإزاره، لا قناعه فحسب، حتى ظهر عريانًا بادي السوأتين، وأعمى العينين، ليس دونه شيء من ستار لقب الوهابية ولا من شفوف التقية»[1].

فمناقشة أصول الشيعة ونقدها نقدًا علميًّا هو الكفيل بتصحيح الأوهام وتقويم الانحرافات ورد الصف إلى الالتئام والاجتماع على كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ الصحيحة، لا وحدة زائفة تخفي وراءها ضغينة وعداوة وتحريفًا للكلم عن مواضعه، وإحداثًا في شريعة اللَّه لم يأذن به اللَّه، وتظاهرًا بما لا ينطوي عليه القلوب.

(١) «السنة والشيعة» (٢/ ٥).

* خصومته مع المستشرقين:

اطلع الشيخ رشيد على السموم التي نشرها المستشرقون تارة بأسمائهم، وتارة بأبواقهم ممن استغفلوهم من أبناء المسلمين، وأصدر كتابه «الوحي المحمدي» ينافح بالحجة والمحجة ويرد على كثير مما أثاروه، وراسلهم، وكان حريصًا على أن يُبلّغ هؤلاء دعوة صحيحة عن الإسلام رجاء أن يدخلوا في دين اللَّه.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ تحت عنوان «بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج والمستشرقين منهم»:

«لن يكون بلوغ الدعوة صحيحًا موجزًا إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين، فإنهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته، ويعرّفوا غيرهم بها، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها، لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التي ينكرونها، كما نرى فيما اطلعنا عليه من كتبهم، وفي معجمهم العلمي، الذي سمّوه بـ «دائرة المعارف الإسلامية»... وأما المستقلون منهم وهم الأقلون، فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم، فقضاياها عندهم مُسَلّمات، كأنها لا مجال للبحث فيها، وقد قرّبنا مسافة الخلاف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ..» إلى أن قال: «ولعل كتاب «الوحي المحمدي» قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية، فإنني أهديته إلى من عرفت عناوينهم، وأرسله غيري إلى أناس منهم...»[1].

(١) مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد رضا.

* الخصومة مع النصارى:

رغم أن الشيخ رشيد كان لين الجانب مع النصارى، إلاّ أن هذا اللين كان في المعاملة، أما إذا اقترب الأمر من الدين والعقيدة، فهو لا يبالي أكان كلامه مقبولاً عندهم أوْ لا، وقد وضع كتابه «شبهات النصارى وحجج الإسلام» ويتضمّن ست عشرة مقالة نشرت في المجلدين الرابع والخامس من المنار وفيها المقابلة بين الإسلام والنصرانية، وتحقيق كون النصرانية من الوثنية، . . .

❑ وألّف أيضًا كتاب «المسلمون والقبط» فيه كما يقول الشرباصي: «فيض من الشواهد على غيرته الدينية وعدم التساهل مع غير المسلمين فيما هو من حقوق الإسلام»[1] .

فهو يقول فيه مثلاً: «فكل ما ناله القبط من الوظائف الكثيرة فهي فضل وإحسان من أمير مصر المتساهل»[2] .

وقد ذهب الشيخ رشيد إلى النصارى وناقشهم بالحجة واللسان كما ذكر ذلك في «تفسير المنار» (٦/ ٢٥).

❑ وقد أصدر السيد رشيد رضا إنجيل برنابا وطبعه، وهذا الإنجيل كان النصارى قد أخفوه وحرّموا مطالعته، ففوجئوا بالسيد رشيد يطبعه في المنار معلقًا عليه، وذلك لأن هذا الإنجيل فيه توحيد الرب وبشرية عيسى، ولا يوجد فيه ما يوجد في أناجيلهم الأربعة الأخرى.

* خصومته مع الماسونية وتحريمه الدخول فيها:

❑ مع علم الشيخ رشيد رضا أن الأفغاني ومحمد عبده دخلا في

(١) «رشيد رضا» للشرباصي (ص١٨٧).
(٢) «المسلمون والقبط» لرشيد رضا (ص٣٧).

الماسونية إلا أنه خالفهما في ذلك أشد المخالفة يقول ـ رحمه اللَّه ـ عن الماسونية: «لم يكن لها ثمرة إلا إعداد النفوس لفصل السياسة والحكومة عن الدين، والاستغناء عن الشرع بالقوانين، والمؤاخاة بين المسلمين وغيرهم وموالاتهم لهم»[١].

كان الشيخ رشيد يرى أن الماسونية جميعة سياسية لإزالة استبداد الملوك وسلطة البابوات، وأن الواضع لأساسها الأول هم اليهود وغرضهم إعادة ملك سليمان، ويرى أن الماسون هم السبب في هدم الحكومة التركية الإسلامية.

ولذا منع من الدخول فيها؛ وذلك لأنه بعد ذكره لحقيقتها وغرضها قال لسائليه: «إذا قد عرفتم حقيقتها وغرضها فقد عرفتم حكم الدخول فيها»[٢].

*** محاربته للفساد السياسي عند بعض الولاة العثمانيين:**

الثابت أن الشيخ محمد رشيد رضا كان يهاجم أمورًا من الفساد والانحطاط في سياسة بعض الولاة العثمانيين... وهذا لا يعني مطلقًا أنه كان يسعى لاسقاط الخلافة العثمانية.

كيف يُقال هذا عنه وهو يقول عن المستعمرين: «إنهم يبثون في البلاد العربية فكره الاستقلال العربي مخادعة للعرب، ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية، وماذا تريد أوربا بعد ذلك؟، تريد أن تضع البلاد العربية تحت حمايتها، أو تضمها إلى معسكراتها، وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال»[٣].

---

(١) «فتاوى السيد رشيد رضا» (٣/ ١١٢٢).

(٢) «فتاوى السيد رشيد رضا» (ص٩٧٧، ص١١٢١، ص٢٠٦٢).

(٣) «رشيد رضا» للشرباصي (ص٣١).

* **تحذيره من التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين، ووقوفه ضد المستعمرين:**

والثابت أيضًا أن الشيخ رشيد كان يقاوم التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية بكل قواه، ويحذر منه.

فحينما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب، كتب عشر مقالات بعنوان «المسألة الشرقية» حذّر فيها من الخطر الذي يُحدق بالعالمين الإسلامي والعربي حتى اضطر وكلاء الدولة الأوربية في مصر إلى الالتجاء إلى المعتمد البريطاني في مصر ليوقف هذه المقالات ويحول دون انتشارها بين الأمة العربية[١].

❑ أما الاستعمار الفرنسي فحاربه السيد رشيد وهاجم سياسته الرامية إلى تنصير المسلمين ونقد الأزهر في عدم إصداره احتجاجًا على فرنسا بهذا المعنى[٢].

❑ وأما موقفه من بريطانيا والإنجليز فأشهر من أن يُوضّح ويحقق، فإن كتبه ومقالاته طافحة بذكر عيوبهم والتحذير من تدخلهم في شئون المسلمين، ولما نشبت الحرب العالمية حاول الإنجليز استمالته إليهم، ولمّا لم يروا منه ذلك صار تحت مراقبتهم[٣].

❑ وقد هاجم الإنجليز في معرض هجومه الشديد على سياسة الأمراء حسين وفيصل وعبدالله، وانتقاده لسياستهم في الحجاز قبل استيلاء الملك عبدالعزيز عليه، فمن ذلك قوله متهكمًا: «يظهر أن مدير التيمس، ومراسل التيمس بمصر، وأمثالهما لا يزالون يظنون كما يظن رجال وزارة الخارجية البريطانية، أن المسلمين لا يزالون يصدقون كل ما يقول الإنجليز، بدليل أن بعض أهل فلسطين وسورية والعراق لا يزالون يعظمون حسينًا وفيصلاً

(١) «رشيد رضا» للدكتور أحمد العدوي (ص٢٣٦).
(٢) «المنار والأزهر» لرشيد رضا (ص١٤).
(٣) «رشيد رضا» للعدوي (ص٢٤٣).

وعبدالله مع ظهور خيانتهم للأمة العربية، وخيانتهم للدين الإسلامي»[١] .

❑ وندّد بالكتاب الذين يخدمون السياسة الإنكليزية[٢] .

❑ وكثير ما حذّر المسلمين من مخططات الإنكليز وفضح أساليبهم، ووصفهم بأنهم أعداء الخلافة الإسلامية والعرب معًا، وأنهم الذين يحاربون دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويساعدون خصومهم بالمال والعتاد، ويذكر موانع انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنها الدولة العثمانية، ومحمد علي باشا، ودولة الدسائس الشيطانية ويقصد بها بريطانيا[٣] .

❑ وكانت له ـ رحمه الله ـ مشاركة حميدة في محاربة الصهيونية، والحيلولة دونهم للاستيلاء على فلسطين، وكتب سلسلة من المقالات عن ثورة فلسطين أسبابها ونتائجها، وحقائق في بيان حال اليهود والإنجليز والعرب.

❑ ولقد رحل إلى الأستانة عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) لإزاله سوء التفاهم بين العرب والأتراك.

* خصومته مع جمعية الاتحاد والترقي:

❑ ثار الشيخ رشيد على جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبدالحميد، ووصفها بأنها جمعية الأحمرين الدم والذهب. وقد ذكر شكيب أرسلان أن السيد رشيد لما انضم لأعداء الدولة العثمانية قبل الحرب الكبرى كان غرضه إسقاط جمعية الاتحاد والترقي، ولم يكن يريد زوال الدولة العثمانية. انظر (ص١٩٧) من ترجمة الأمير شكيب أرسلان للسيد رشيد.

❑ ووصف الشيخ رشيد مصطفى كمال أتاتورك بالإلحاد والمروق، بل

(١) «الوهابيون والحجاز» لرشيد رضا (ص٢٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٩).
(٣) مجلة المنار (٢٦/ ٢٠٥).

قد وصف جميع أعضاء وزعماء حزب الاتحاد والترقي بذلك، وصفهم بأنهم «أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانيك...»اهـ. وكان هذا في خطبته السياسية في منى لما حج «المنار» (١٦/ ١٥٩).

❑ وتأسف الشيخ رشيد على الخلافة، وأخذ يدعو بشدة إلى إعادة الخلافة الإسلامية، وألف في ذلك كتابة «الخلافة» أو «الإمامة العظمى»، ودعا إلى عقد مؤتمر للخلافة في مصر سنة ١٣٤٣هـ وتم انعقاده بلا نتيجة مشجعة.

*** الخصومة بينه وبين أتباع المدرسة العقلية الحديثة:**

❑ جاء السيد محمد رشيد رضا إلى مصر عام ١٣١٥هـ ـ وعمره ٣٢ سنة ـ وبدأ محمد عبده دروسه في التفسير عام ١٣١٧هـ ـ وعمر رشيد آنذاك ٣٤ سنة ـ، وتُوفي محمد عبده عام ١٣٢٣هـ ـ وعمر رشيد ٤٠ سنة ـ توفى الشيخ رشيد وله من العمر ٧٢ سنة عام ١٣٥٤هـ.

ولقد كتب الشيخ رشيد «المنار والأزهر» وله من العمر ٧٠ سنة أي بعد موت محمد عبده بـ ٢٨ سنة.

فالشيخ رشيد صحب محمد عبده وهو في سن ٣٢ سنة، وافترقا بموت محمد عبده ورشيد في الأربعين... معنى هذا أن الشيخ رشيد صاحب محمد عبده ثمان سنوات فقط منها ستة سنوات سمع منه فيها للتفسير.

❑ ومن جهة أخرى عاش السيد رشيد بعد موت الشيخ محمد عبده ثلاثين سنة، وهذه المدة كفيلة أن تُغيّر فكر الشخص وتحوله.

---

(١) «مجموع فتاوى رشيد رضا» (ص٨٧ ـ ٨٨).

(٢) «تفسير المنار» (١/ ١٦).

ولقد صرّح الشيخ رشيد رضا بأنه قام بالدعوة الإصلاحية مستقلاً برأيه في كل شيء دون التلقين من محمد عبده، فيقول في ترجمة حياته:

«فإن بعض الناس كانوا يظنون أنني قد قمت بهذه الدعوة الإصلاحية في الإسلام بالتلقين من الشيخ محمد عبده، وأنني لم أكن ذا رأي مستقل فيها ولا عاملاً بوازع من نفسي، ويظن آخرون أني أنشأت المنار لأجل كسب الرزق، ولكن قرّاء المنار ولا سيما الأولين منهم كانوا يعلمون أن الأمر بخلاف ذلك من كل وجه، وأنني كنت مستقلاً برأيي في كل شيء»[1].

واختلف منهجه كثيراً بعد موت الشيخ محمد عبده وصرّح هو بذلك فيقول: «هذا وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه ـ رحمه اللّه ـ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواءً كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها»[2].

وخالف أستاذه وسجل هذا في كتابه «المنار والأزهر» وكان يقول: «هذا قول محمدعبده وأنا أخالفه».

ولقد تحول منهج السيد رشيد كلما امتد به العمر عن منهج محمد عبده والأفغاني وازداد سلفية، وترك كثيراً مما كان عليه يوم جاء إلى مصر في أول عهده في الطلب والإصلاح، وقد أدرك أتباع المدرسة العقلية من تلاميذ الشيخ محمد عبده تحوّله عن منهج شيخه، وجرت بينه وبينهم مناقشات حادة في الصحف، وكثيراً ما هاجموه وهاجموا آراءه الجديدة، ومن هؤلاء الأستاذ محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة المصرية، فقد فتح مجلته للهجوم على السيد رشيد، ويذكر الشيخ رشيد أن السبب في ذلك هو وقوفه ضد علي عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وهكذا وقف الشيخ رشيد طوداً شامخًا، وسداً منيعًا أمام أي انحراف عن النبع الصافي.

ولقد فنّد ونقد فيما نقد كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين.

*** من تأثر برشيد رضا:**

لقد أثر الشيخ رشيد رضا في أكثر من جاء بعده من الأفراد والجماعات، كلها قد جعلت رشيد رضا إمامًا واستمدت منه الطريق، واستوحت من كتاباته ومقالاته هداها، وكان نبراسًا وشعلة هدى، ولقد صدع صاحب المنار ومناره بالحق على أكثر من ثلاثين سنة ينشر الفكر السلفي المتحرر من ربقة الجهل والضلال، وجاء صوته ومعوله يدق صروح التخلف مذعنًا ببدء دعوة جديدة مع داعية ومصلح عظيم.

تأثرت به جمعية أنصار السنة ومؤسسها الشيخ حامد الفقي أكبر الأثر، وأثر في كبار علمائها: أحمد شاكر، وعبدالرزاق حمزة، وتأثر به الشيخ الألباني ومدرسة السلفية أكبر الأثر، والشيخ تقي الدين الهلالي الداعية السلفي الكبير.

واعتبر الأستاذ البنا (الإخوان المسلمون) امتدادًا لدعوة رشيد رضا، ولم يتحرج مؤرخو الإخوان أن يسطروا ذلك في تاريخ الحركة بوضوح وصراحة، ولقد كان الأستاذ البنا على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالبًا بدار العلوم، وكانت مجلة المنار ملتقاه بأكثر من التقى بهم من رجالات الحركة الإسلامية في ذلك العهد، واتخذت أكثر القرارات في مواجهة المؤامرات ضد الإسلام في هذه الدار، وقد ظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان، وكان يستشيره في كثير من الأمور»[1].

(١) «الإخوان المسلمون» رؤية من الداخل للأستاذ محمود عبدالحليم (٢٤٦/١) طبع دار الدعوة بالإسكندرية، وكتاب «الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية=

فرحم اللَّه الشيخ الإمام رشيد رضا وأجزل له المثوبة جزاء ما قدّم لدينه وأمته.

الدين النصيحة وكلٌّ يُؤخذ من قوله ويرد

لله در إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وما أطيب كلمته الكافية الشافية: «كل يُؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر» ـ يعني رسول اللَّه ﷺ ـ وقد وقع السيد رشيد رضا في أخطاء وشطحات نسأل اللَّه أن يغفرها لها بفضله ثم ببحر خير الرجل ولحجم علمه وجهاده منها:

مدحه لكتابيْ قاسم أمين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، ومنها لين جانب للنصارى في الأمور الاجتماعية، وصلته الوثيقة ببعضهم.

ومنها قوله: بعدم وجود نص قطعي في أفضل الناس بعد النبي ﷺ.

ومنها إنكاره للمهدي، وإنكاره لنزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

ومنها إنكاره لانشقاق القمر، ومنها قوله في المعجزات: أنها تأتي تأييدًا لا حجة، وقوله في الربا، ومنها إباحته سماع الملاهي وزعمه بعدم ورود نص صريح في تحريمها ـ غفر اللَّه له.

* شيخ الإسلام عبدالرحمن المعلمي اليماني وأنواره الكاشفة لزلل عدو السنّة أبي ريّة، وتنكيله للكوثري القبوري شيخ الأباطيل:

لله در شيخ الإسلام العلاّمة المحدث الفقية عبدالرحمن بن يحيى بن علي المعلمي العتمي اليماني (١٣١٣هـ ـ ١٣٨٦هـ) ولد ونشأ في بلاد عتمة،

= المصرية» (١٩٢٨ ـ ١٩٤٨) للدكتور زكريا سليمان بيومي.

وتعلّم فيها، وبعدد من بلاد اليمن، ثم أقام في عسير، وتولى رئاسة القضاء، ولُقّب لورعه ودينه وعلمه بشيخ الإسلام، ثم سافر إلى الهند، وأشرف على دائرة المعارف العثمانية، وأشرف على ما نشرت من الكتب العلمية. ثم أقام في مكة من سنة ١٣٧١هـ، وعيّن أمينًا لمكتبة الحرم المكي، وقد خدم المكتبة خدمة جلي، وكان على صلة طيبة برجال الإصلاح في العالم الإسلامي، ومات بعد صلاة الفجر بمكة المكرمة عام ١٣٨٦هـ ودفن بمكة ـ رحمه الله ـ.

▫ ولله در القائل: «من لم يقر بأن أهل الحديث هم أنصار الدين فإنه يُعدّ في ضعفاء المساكين».

▫ وما أحلى قول من قال: «لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر».

لما سوّد عدو السنة الصفحات في كتابه «أضواء على السنة» وسار على خطأ المستشرقين وطعن في السادة علماء الإسلام انبرى للرد عليه فضيلة الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة مدير دار الحديث بمكة المكرمة في كتابه القيم «ظلمات أبي رية»، ثم أتى العالم الفذ الشيخ المعلمي اليماني بكتابه الفذّ «الأنوار الكاشفة لما في كتاب «أضواء على السنة» من الزلل والتضليل والمجازفة فقبرترهات عدو السنة أبي رية وألقمه حجرًا بل جبلاً، وكشف دجله، وكيف أن علماء الأمة عنده هم النظام وثمامة ورؤوس البدعة وتطاوله على شيوخ الحديث وأئمة أهل السنة الذين نعتهم بأنهم «صدور الحشوية وشيوخ الجهل من زوامل الأسفار الذين يخشون على علمهم المزور من سطوة الحق ويخافون على كساد بضاعتهم العفنة التي يستأكلون بها أموال الناس بالباطل... وليس لمثل هؤلاء خطر عندنا ولا وزن في حسابنا»[1].

---

(١) «أضواء على السنة» لأبي رية (ص١٤)، و«الأنوار الكاشفة» لما في كتاب «أضواء على السنة» من الزلل والتضليل والمجازفة» للشيخ عبدالرحمن المعلمي (ص١٢) ـ المكتب الإسلامي.

✍ فرد اللَّه كيده في نحره على يد ليث السنة المعلمي.

❑ قال المعلمي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإن أضرّ الناس على الإسلام والمسلمين هم المحامون الاستسلاميون، يطعن الأعداء في عقدة من عقائد الإسلام أو حكم من أحكامه ونحو ذلك، فلا يكون عند أولئك المحامين من الإيمان واليقين والعلم الراسخ بالدين والاستحقاق لعون اللَّه وتأييده ما يثبتهم على الحق، ويهديهم إلى دفع الشبهة، فيلجأون إلى الاستسلام بنظام، ونظام المتقدمين التحريف، ونظام المتوسطين زعم أن النصوص النقلية لا تفيد اليقين والمطلوب في أصول الدين اليقين، فعزلوا كتاب اللَّه وسنة رسوله عن أصول الدين. ونظام بعض العصريين التشذيب، وأبو رية يحاول استعمال الأنظمة الثلاثة ويوغل في الثالث. على أن أولئك الذين سميتهم محامين كثيراً ما يكونون هم الخصوم، والباطل جشع، وقد قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١][1].

❑ ولقد ردّ المعلمي على عدو السنة في تطاوله على الصحابة ﷺ ورميهم باعتقاد ما يخبر به أهل الكتاب صحيحًا لا ريب فيه، وفندّ ذلك ـ رحمه اللَّه. ثم رد على مكيدة مهوله يكاد بها الإسلام والسنة اخترعها بعض المستشرقين وتبناها أبو رية وارتكب لترويجها ما ارتكب واتهامه لعمر ﷺ بأسفل درجات الغفلة بأنه كان يستمع لكعب الأحبار، وأن كعبًا توسّع في الروايات الكاذبة، وأن الصحابة قبلوا من كعب ما يخبرهم به عن النبي ﷺ مما يُفسد دينهم!!! فحط على الفاروق والصحابة الذين فتحوا العالم ودبروا الدنيا.. حط عليهم بالباطل والزور والخيانة.

❑ ثم ردّ عليه في تكذيبه لحديث المعراج واستهزائه به وعدّه من

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص٢٥).

الإسرائيليات ثم تكلم عن افترائه على الصحابة بنسبة الكذب إليهم فلعنة اللَّه عن من كذّبهم، ثم رد المعلمي على عدو السنة في رده لحديث شق الصدر واستهزاء أبي رية به، ثم تكذيبه لأبي هريرة وشسع نعل أبي هريرة أفضل منه ومن أمثاله، واحتجاج أبي رية بجلد سيهر.

❑ ثم رد على انتقاد أبي رية في ترجمة أبي هريرة نيفًا وثلاثين حديثًا ـ رد المعلمي ردًّا شافيًا أثلج صدور المؤمنين، وبين رد عدو السنة لأحاديث صحيحة ثابتة كحديث موسى وملك الموت، والأحاديث في شأن الدّجال، وحديث الحوض وحديث كشف الساق، وكلامه عن «صحيح البخاري».

❑ ثم رد عليه بذاءته على علماء الدين واطراءه للمستشرقين ويحشر المرء مع من أحب.

*** تنكيله بالكوثري وأباطيله:**

❑ يقول محدث ديار الشام الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ في تقديمه لكتاب «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل»: «أما بعد، فإني أقدم اليوم إلى القرّاء الكرام كتاب «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» تأليف العلامة المحقق الشيخ عبدالرحمن بن يحيى بن علي اليماني ـ رحمه اللَّه، بيّن فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تجني الأستاذ الكوثري على أئمة الحديث ورواته، ورميه إياهم بالتجسيم والتشبيه، وطعنه عليهم بالهوى والعصبية المذهبية، حتى لقد تجاوز طعنه إلى بعض الصحابة، مصرّحًا بأن أبا حنيفة رغب عن أحاديثهم! وأن قياسه مقدم عليها! فضلاً عن غمزه بفضل الأئمة وعلمهم، فمالك مثلاً عنده ليس عربي النسب بل مولى! والشافعي كذلك، بل هو عنده غير فصيح في لغته، ولا متين في فقهه، والإمام أحمد غير فقيه عنده! وابنه عبداللَّه مجسم، ومثله الأئمة ابن خزيمة وعثمان بن سعيد الدارمي وابن أبي حاتم وغيرهم، والإمام الدارقطني عنده

أعمى ضال في المعتقد، متبع للهوى، والحاكم شيعي مختلط اختلاطًا فاحشًا!!! وهكذا لم يسلم من طعنه حتى مثل الحميدي، وصالح بن محمد الحافظ، وأبي زرعة .

ثم هو إلى طعنه هذا يضعف الثقات من الحفاظ والرواة، وينصب العداوة بينهم وبين أبي حنيفة لمجرد روايتهم عنه بعض الكلمات التي لا تروق لعصبية الكوثري وجموده المذهبي، وهو في سبيل ذلك لا يتورع أن يعتمد على مثل ابن النديم الوراق وغيره ممن لا يعتقد بعلمه في هذا الشأن.

وهو على النقيض من ذلك يوثق الضعفاء والكذابين إذا رووا ما يوافق هواه!

ومنه يتبيّن للناس ما كان خافيًا عليهم من حقيقة الكوثري، وأنه كان يجمع في نفسه بين صفتين متناقضتين: فهو في الفقهيات وعلم الكلام مقلد جامد، وفي التجريح والتعديل، والتوثيق والتضعيف، وتصحيح الحديث وتوهينه، ينحو منحى المجتهد المطلق، غير أنه لا يلتزم في ذلك قواعد أصولية، ولا منهجًا علميًّا! فهو مطلق عن كل قيد وشرط لذلك فهو يوثق من شاء من الرواة ولو أجمع أئمة الحديث على تكذيبه، ويضعف من شاء ممن أجمعوا على توثيقه، ويصرح بأنه لا يثق بالخطيب وأبي الشيخ ابن حبان ونحوهما، ويضعف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه، ولو كان مما خرجه الشيخان في «صحيحهما» ولا علة قادحة فيه. ويصحح ما يعلم كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع مثل حديث «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي ستتجلى للقارئ الكريم، مبرهنًا عليها من كلام الكوثري نفسه في هذا الكتاب العظيم بأسلوب علمي متين، لا وهن فيه، ولا خروج عن أدب المناظرة، وطريق المجادلة بالتي هي أحسن، بروح علمية عالية، وصبر على البحث والتحقيق كاد أن يبلغ الغاية، وإن لم أقل بلغها.

كل ذلك انتصارًا للحق، وقمعًا للباطل، لا تعصبًا للمشايخ والمذهب، فرحم اللَّه المؤلف وجزاه عن المسلمين خيرًا»[1].

❑ يقول الشيخ عبدالرحمن المعلمي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإني وقفت على كتاب «تأنيب الخطيب» للأستاذ العلامة محمد زاهد الكوثري، الذي تعقب ما ذكره الحافظ المحدث الخطيب البغدادي في ترجمة الإمام أبي حنيفة من «تاريخ بغداد» من الروايات عن الماضين في الغض من أبي حنيفة، فرأيت الأستاذ تعدّى ما يوافقه عليه أهل العلم من توقير أبي حنيفة وحسن الذب عنه ـ إلى ما لا يرضاه عالم متثبت من المغالطات المضادة للأمانة العلمية، ومن التخليط في القواعد، والطعن في أئمة السنة ونقلتها، حتى تناول بعض أفاضل الصحابة والتابعين والأئمة الثلاثة مالكًا والشافعي وأحمد وأضرابهم وكبار أئمة الحديث وثقات نقلته والرد لأحاديث صحيحة ثابتة، والعيب للعقيدة السلفية، فأساء في ذلك جدًّا حتى إلى الإمام أبي حنيفة نفسه، فإن من يزعم أنه لا يتأتى الدفاع عن أبي حنيفة إلا بمثل ذلك الصنيع فساء ما يثني عليه[1]، فدعاني ذلك إلى تعقيب الأستاذ فيما تعدى فيه، فجمعت في ذلك كتابًا أسميته «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل»، ورتبته على أربعة أقسام:

القسم الأول: في تحرير القواعد التي خلط فيها.

الثاني: في تراجم الأئمة والرواة الذين طعن فيهم وهم نحو ثلثمائة فيهم أنس بن مالك ﷺ، وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام، والأئمة الثلاثة، وفيهم الخطيب، وأدرجت في ذلك تراجم أفراد مطعون فيهم حاول توثيقهم..

---

(١) في الطبعة الأولى «بمثل الطعن في هؤلاء الأكابر فقط فضح وأساء إلى من يريد الذب عنه بسوء صنيعه.

الثالث: في الفقهيات، وهي مسائل انتقدت على أبي حنيفة وأصحابه، حاول الأستاذ الانتصار لمذهبه.

الرابع: في الاعتقاديات ذكرت فيه الحجة الواضحة لصحة عقيدة أئمة الحديث إجمالاً. وعدة مسائل تعرض لها الأستاذ، ولم أقتصر على مقصود التعقب، بل حرصت على أن يكون الكتاب جامعًا لفوائد عزيزة في علوم السنة مما يعين على التبحر والتحقيق فيها.

وحرصت على توخي الحق والعدل، واجتناب ما كرهته للأستاذ، خلا أن إفراطه في إساءة القول في الأئمة جرّأني على أن أصرّح ببعض ما يقتضيه صنيعه»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ في «القائد إلى تصحيح العقائد» وهو القسم الرابع من كتابه «التنكيل»:

«فإن صاحب كتاب «تأنيب الخطيب» تعرّض كتابه للطعن في عقيدة أهل الحديث ونبزهم بالمجسمة، والمشبهة، والحشوية، ورماهم بالجهل والبدعة، والزيغ والضلالة، وخاض في بعض المسائل الاعتقادية، كمسألة الكلام والإرجاء، فتجشّمت أن أتعقبه في هذا كما تعقّبته في غيره، راجيًا من اللَّه تبارك وتعالى أن يثبت قلبي على دينه، ويهديني لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، ويتغمدني بعفوه ورحمته، إنه لا حول ولا قوة إلا باللَّه»[2].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه:

١ ـ يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في

(١) «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للشيخ عبدالرحمن المعلمي اليماني (ص١١ ـ ١٢) ـ دار الكتب السلفية.

(٢) «التنكيل» (ص١٨٨).

عظمة اللَّه عز وجل وأنه رب العالمين وأنه سبحانه يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان سبحانه وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه خيرًا له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتى يتوفاه راضيًا مرضيًّا، فيرفعه إليه، ويقربه لديه، ويحله في جواره مكرمًا منعمًا في النعيم المقيم والشرف الخالد، الذي لا تبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئًا من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بعدًا عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغ الأوهام شدته»[1].

ثم قال: «يسعى في التمييز بين معدن الحق ومعدن الشبهات، فإنه إذا تم له ذلك هان عليه الخطب؛ فإنه لا يأتيه من معدن الحق إلا الحق فلا يحتاج إن كان راغبًا في الحق قانعًا به إلى الإعراض عن شيء جاء من معدن الحق، ولا إلى أن يتعرض لشيء جاء من معدن الشبهات، لكن أهل الأهواء قد حاولوا التشبيه والتمويه، فالواجب على الراغب في الحق أن لا ينظر إلى ما يجيئه من معدن الحق من وراء زجاجاتهم الملونة، بل ينظر إليه كما كان ينظر إليه أهل الحق. واللَّه الموفق»[2] انتهى من «القائد إلى تصحيح العقائد» الذي قال فيه الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة أنه: «كتاب من أجود ما كُتب في بابه».. قرأت الكتاب فأُعجبت به أيّما إعجاب لصبر العلاّمة على معاناة مطالعة نظريات المتكلمين خصوصًا من جاء منهم بعد من ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم كالعضد والسعد، ثم رده عليهم بالأسلوب الفطري والنقول الشرعية التي يؤمن بها كل من لم تفسد عقليته بخيالات الفلاسفة المتكلمين، فسدّ بذلك فراغًا كان على كل سُني سلفي سدّه

(١) المصدر السابق (ص٢٠٥).
(٢) المصدر السابق (ص٢١٧).

بعد شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما اللَّه تعالى، وأدّى عنا دينًا كنا مطالبين بقضائه، فجزاه اللَّه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وحشرنا وإياه في زمرة الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا»[1].

* الكوثري لا يرقب في علماء السلف إلاّ ولا ذمة، ويقع في ابن تيمية وتلاميذه بما هو وصمة عار في جبينه:

❑ للَّه در القائل:

ما ضرّ شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

❑ محمد زاهد الكوثري الحنفي الجركسي ألدّ أعداء السنة الذي يتأجج حقدًا وغيظًا وحنقًا على السلفيين وشيخهم ابن تيمية وتلاميذه، هو حامل لواء التجهم في العصر الحديث:

«ذكر الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد أن الكوثري نبز ابن القيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» كذبًا ووضعًا فقال:

«وهو أمر غير بعيد على مخلوق يتأجج غيظًا وحنقًا على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذ مدرسته السلفيين كابن قيم الجوزية، فإنه نسب نفسه، وكدّ قلمه وفكره في محاربة هذين الإمامين، وإثارة الشغب عليهما، ورميهما بالزندقة والكفر، والنفاق والضلال[2] وإذا سكن جأشه توسع في السباب واللعن وكيل القذائف مما لا يتصور خروجه إلي من رجل مقضيّ عليه في

---

(١) المصدر السابق (ص٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) قال العلامة بدر الدين العيني الحنفي ـ الذي يفضّله الكوثري على ابن حجر ـ: «فمن قال هو كافر فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة فهو زنديق» «الرد الوافر» (ص٢٤٤).

دينه وعقله. وكتبه ورسائله شاهدة بذلك. . .»[١].

❑ قال الكوثري في كتابه «الإشفاق في مسألة الطلاق» (ص٨٩):

«إن كان ابن تيمية لا يزال يعدّ شيخ الإسلام فعلى الإسلام السلام»[٢].

❑ وقال أيضًا:

«والأغرب من هذا وذاك أن يرفع دعاة الإصلاح العصري عقيرتهم بالدعوة إلى تقلّد مذهب من يكون بهذه السخافة في بداهة العقول، والإعلان عنه وعن شيخه. . . أنهما أكبر مصلح تتطلبه حاجة العصر. فإن كان هذا هو الإصلاح فعلى الإسلام السلام»[٣].

هكذا سلّم الكوثري على إسلامه مرارًا، في مواضع أخرى من كتاباته، في عداوة شيخ الإسلام وتلميذه ابن قيم الجوزية ـ رحمهما اللّه تعالى.

❑ وقال أيضًا في «الإشفاق» (ص٨٦):

«ولو قلنا: لم يبل الإسلام في الأدوار الأخيرة بمن هو أضرّ من ابن تيمية في تفريق كلمة المسلمين لما كنا مبالغين في ذلك، وهو سهل متسامح مع اليهود والنصارى»[٤].

❑ وقال العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه اللّه تعالى ـ:

«. . . المدعو زاهد الكوثري، الذي كان ـ والحق يقال ـ على حظّ وافر من العلم بالحديث ورجاله، ولكنه ـ مع الأسف ـ كان علمه حجة عليه

---

(١) «ابن قيم الجوزية» (ص١٨).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٨ ـ مقدمة الألباني) المكتب الإسلامي ط. رابعة ١٣٩١هـ بيروت.

(٣) «تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» لابن عساكر (ص٣٩٣ ـ تعليقًا) دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٩ ـ مقدمة الألباني).

ووبالاً؛ لأنه لم يزدد به هدى ونوراً، لا في الفروع ولا في الأصول، فهو جهميّ معطّل، حنفيّ هالك في التعصب، شديد الطعن والتحامل على أهل الحديث قاطبة، المتقدّمين منهم والمتأخرين.

فهو في العقيدة يتّهمهُم بالتشبيه والتجسيم، ويلقّبهم... بالحشوية السخفاء. ويقول في كتاب «التوحيد» للإمام ابن خزيمة: «إنه كتاب الشرك» ويرمي نفس الإمام بأنه مجسّم جاهل بأصول الدين!

وفي الفقه يرميهم بالجمود، وقلة الفهم، وأنهم حملة أسفار!

وفي الحديث طعن في نحو ثلاثمائة من الرواة أكثرهم ثقات. وفيهم نحو تسعين حافظًا وجماعة من الأئمة الفقهاء، كمالك والشافعي وأحمد...

وهو إلى ذلك يضعّف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه... وعلى العكس من ذلك فهو يصحّح انتصاراً لعصبيته المذهبية ما يشهد كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع، مثل حديث: «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي لا مجال لسردها، وبسط القول فيها الآن.

وقد ردّ عليه وفصّل القول فيها بطريقة علمية سامية، وبحث منطقي نزيه العلامة عبدالرحمن المعلمي اليماني في كتابه «طليعة التنكيل» ثم في كتابه الفذّ العظيم «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل». فليراجعهما من شاء الوقوف على حقيقة ما ذكرنا، فإنه سيجد الأمر فوق ما وصفنا، واللَّه المستعان»[1].

* عدوان الكوثري على الأئمة الأعلام:

إن الكلام في جانب الصحابة ﷺ يدلّ على خذلان فاعله. وهذا

(١) المصدر المذكور (٤٥ ـ ٤٦).

المتجرئ رمى أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبيّ ﷺ بالخرف والوهم؛ لأن روايته خالفت هواه. فنعوذ بالله من الخذلان.

وأما كلامه في الأئمة الأعلام، والنيل من كرامتهم لأجل الدفاع عن الحنفية فحدّث عنه ولا حرج»[1].

«فليس للشافعي عنده ميزة... سوى قرشية فيها خلاف، وليس لمالك مزيّة سوى سكنى المدينة في وقت لا فضل في سكناها، وليس لأحمد بن حنبل فضل سوى كثرة الحديث من غير تمحيص ولا غوص فهي قليلة الجدوى»[2].

«وهو لا يرى شيئًا غير أبي حنيفة، ولذلك لقّبه أحمد الغماري بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[3].

وتجنّى على أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ فقال:

«ومن الغريب أن بعض من يعدّونه من أمراء المؤمنين في الحديث يتبجّح قائلاً: إني لم أخرج في كتابي عمن لا يرى أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، مع أنه أخرج عن غلاة الخوارج ونحوهم في كتابه، وهو يدري أن الحديث القائل بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص غير ثابت عند النقّاد. ولا التفات إلى المتساهلين، ممن لا يفرّقون بين الشمال واليمين»[4].

---

(١) راجع كشف مخاريه في العلماء الأعلام في «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للعلامة عبدالرحمن يحيى المعلمي اليماني ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) «المقابلة بين الهدى والضلال» للشيخ عبدالرزاق حمزة (ص٦٩).

(٣) ابن قيم الجوزية» للدكتور أبو زيد (ص٢١) نقلاً عن «بدع التفاسير» للغماري (ص١٨٠).

(٤) «تأنيب الخطيب» (ص٤٤ ـ ٤٥).

ووافق تلميذه الوفيّ عبدالفتاح أبو غدّة على هذا التجنّي أيضًا، مع موافقته على إجائه فقال:

«وبعد هذا البيان الشافي الذي أفاده شيخنا الكوثري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ يتجلّى لك حسن ما قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة ﷺ . . .»[1].

* موافقة الشيخ عبدالفتاح أبي غدّة لشيخه الكوثري على عدوانه وردّ الشيخ بكر أبي زيد عليه:

قال الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد بعد ما نقل عدوانه على أئمة الحديث:

«وهكذا يتعالج بقرض الأعراض، والتمضض بالاعتراض، وسحب أذيال البغض على كل من ليس «حنفيًّا، أشعريًّا، صوفيًّا، قبوريًّا» مع مهارة بالغة في التقول، وتحريف النقول، والتصرف في نصوص المؤلفين، كما فعل في «الانتقاء» لابن عبدالبر، وتداركه القدسي إلى آخر ما هنالك من الصيال والتصاول، وأسباب الخذلان والتخاذل. ولم نره في شيء مما تقدم ندم على ما قدّم.

وفي كتابي «التنكيل» و«طليعته» للعلاّمة المعلمي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ من الردود الموثقة الأمينة من غير سرف ولا مخيلة، ما يكشف مخازي هذا المبتلي، وأنها ـ كما قال المعلمي في موضع من كتابه ـ أصبحت: «كضراطة عير في الفلا».

ومع هذا:

فهذا التلميذ الوفي لتلكم المشارب الكدرة، يزنه بميزان علماء السلف،

---

(١) «قواعد في علوم الحديث» للتهانوي (ص٢٣٨ ـ تعليق عبدالفتاح أبي غدّة).

مع ما رأته عينك الباصرة في هذه النماذج من فحش القول وقبحه، والتبرقع بالصفاقة والحماقة، وبثّ الريب، وتنزيل السباب والشتائم.

وهذا التلميذ لم نعلمه يتعقبه فيما كتب ولو مرة واحدة في دفع هذه الخبائث من صريح كذبه، أو عدوانه؟

وهذا التلميذ أثقل رسائله وتعليقاته بالنقل عنه بما يزيد عن مائة وعشرين مرة ـ بما يمثل مجموعة مجلدة مستقلة مستغفلاً لعباد اللّه، كأنه يصيح بها في واد لا ينبت إلا أغفالاً شربوا من تلك الأرض، من عمل جِلِّق[1].

كل هذا يسوقه بقلم الحفاوة والرضا. أليس هذا هو عين المساوقة في الاعتقاد والرضا؟

وهذا التلميذ صار من أجله «سَمَرِيًا» يجمع ما يحسبه ناهضًا لمشاربه الكدرة، وجلّ الاستدلالات منها كأحاديث السُّمَّار، لا يهم السامر صدقًا كانت أم كذبًا، وعند التحقيق فالذي يسوقه: نصف ليس له، ونصف عليه. فبماذا يتسلى المفلسون؟.

والمسكين بقدر ما احترق في «الكوثري» تهالك في مشاربه.

لكن الشيخ ينشرها عن طريق الفظاظة والمجاهرة والسرف والمناكدة، لأنه في إقليم يسمح له بذلك. والتلميذ تحت وطأة الإقليم والعيش الرغيد ينشرها بكلمات يلفّ حبلها على غاربها عن طريق النقل المجرّد، وترك النص بلا تعليق ومسلك التشذيب لمدرسة أهل الحديث، بالشدّ على مسلك مدرسة الرأي في القديم والحديث.

---

(١) جِلِّق: بكسرتين وتشديد اللام ـ اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قراها، وقيل: دمشق نفسها. «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادي (١/ ٣٤٢) دار المعرفة. بيروت.

فهو في المحاماة عن شيخه وكيل جَلْد.

إنه بهذا الرضا الفضفاض، وهذه الحفاوة البالغة، وحال الرجل كما أشرت، وفوق ما وصفت في اتجاهاته العقدية والمذهبية، والتلميذ مثقّل بهذا العناء وحمله ونشره.

فإن حواشيه: «زاملة هذه المشارب» تحمل مخاطر عظيمة ـ على أصول الحديث ومصطلحه، مكدّرة صفوفها مائلة بها إلى مسار مدرسة معينة؟.

وهذا إخسار في الميزان، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، ولن يبلغ السارون في العصبية مأربهم، وإن أكل البغض قلوبهم. واللَّه من ورائهم محيط».

ثم حذّر الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد من العزو إلى كتابات هؤلاء، وقال:

«وبعد: فكيف يسوغ لعبد يتّبع الدليل، ويرفض التعطيل والتشبيه والتأويل وينابذ الإشراك والبدع في الدين أن يتكفكف في مهيع هذا: القذّيف، الشغّاب السبّاب الطعّان، والشتّام ضاربًا في مجاهل شبهاته ومشتبهاته، يحرث كتبه حرثًا، ويحييها قراءة وبحثًا، وينشر عصارتها في صفوف القراء والدارسين، رافعًا لها على كاهل الرضا والقبول، ناصبًا نفسه له ظهيرًا، ولها نصيرًا.

❑ وهي محل التزوّد والإمداد بأصول النقض لمدرسة السلف في نواقض أربعة:

١ ـ انتصابه للتقليد الأصم في عصبية سادرة.

٢ ـ وثبتُه إلى التمشعر غاليًا جافيًا.

٣ ـ انفلات وكاء عقيدته، في عجم دلائل توحيد اللَّه في عبادته إلى قبورية زائفة.

٤ ـ ثمّ انساب قلمه في التكفير والقذف للأبرياء، والتنقّص للأوفياء، لكل ناج من تلك المشارب الثلاثة.

❑ وهذه الأربع جرّت التلميذ إلى أربع:

١ ـ تنكر لعلماء السلف.

٢ ـ غلائل التقديس المصبغة.

٣ ـ احتضان المبتدعة.

٤ ـ الدنيّة بالدين.

فانظر كيف التقت حلقة البطان، إذ هما يرميان، عن قوس واحدة لغاية واحدة، فيقبل الأستاذ بأربع، ويدبر متابعه بثمان، منثورة في صدور الطلاّب، وأفئدتهم وأفكارهم. والقلوب ضعيفة، والشبه خطّافة، وليس في «الرّبع» حراك.

❑ قال أبو تمام:

مساوٍ لو قُسِمْنَ على الغواني ... لما أُمْهِرْنَ إلا بالطَّلاقِ[1]

* يكفي لإدانة التلميذ:

لا يستغرب صدور هذه الكلمات الإجرامية، وظهور هذه الضغائن المتأصلة ضد علماء الأمة الثقات من الكوثري لأنه كما قال الشاعر:

من يَهُنْ يسهل الهوانُ عليه ... ما لجرح بميّتٍ إيلام

ولكن الغريب انسياق «التلميذ» وراء مخازيه، واستدلاله بها على مراميه، وشحنه تعليقاته بغمزاته ولمزاته، ونسجه هالة من التبجيل حوله تمهيداً للإضلال بتقوّلاته، حتى يلقّبه بـ:

---

(١) «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» (٣٠ ـ ٣٥).

«أستاذ المحققين الحجة المحدث الفقيه الأصولي المتكلم النظّار المؤرخ النقّادة الإمام محمد زاهد الكوثري. . .»[1].

مجرد هذا التبجيل لهذا الحقود على الأئمة الأعلام يكفي لإدانة التلميذ فضلاً عن مخالفاته الأخرى في تعليقاته التي يمجّد فيها كل من يناوئ منهج أهل الحديث قديمًا وحديثًا. وهذا لا ينكره إلا مكابر.

وما الغي إلا أن تصاحب غاويًا ... وما الرشد إلا أن تصاحب من رشد
ولن يصحب الإنسان إلا نظيـره ... وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد

*** غضبة للحق:**

يعرف علامة الجزيرة الإمام الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (المفتي العام للملكة العربية السعودية، والرئيس العام لإدارات البحوث الإسلامية والإفتاء والدعوة والإرشاد) بالورع البالغ، واللسان العفيف والقول النزيه، لا تكاد تسمع منه كلمة مشوبة بالشدة. وهو عالم متّبع هيّن لين سهل قريب. ولا أزكي على الله أحدًا.

إن هذا العالم الجليل ـ حفظه الله وتولاّه ـ لما اطلع على كتاب «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» للعلامة الدكتور بكر بن عبدالله أبوزيد ـ حفظه الله ـ الذي يكشف عن بعض مخازي الكوثري وتلميذه ـ غضب غضبة للحق، ووجه رسالة إلى صاحب الكتاب تأييدًا له، وأداءً لأمانة الكلمة. فكتب ما نصه:

«من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

إلى حضرة الأخ المكرَّم صاحب الفضيلة العلاّمة الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد، وكيل وزارة العدل ـ لا زال مسدّدًا في أقواله وأعماله، نائلاً

(١) كلمة الإهداء في «الأجوبة الفاضلة» للكنوي.

من ربّه جزيل نواله، آمين.

سلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

أما بعد:

فقط اطلعت على الرسالة التي كتبتم بعنوان «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة»، وفضحتم فيها المجرم الآثم محمد زاهد الكوثري بنقل ما كتبه من السبّ والشتم والقذف لأهل العلم والإيمان، واستطالته في أعراضهم، وانتقاده لكتبهم إلى آخر ما فاه به ذلك الأفّاك الأثيم ـ عليه من اللَّه ما يستحق ـ.

كما أوضحتم ـ أثابكم اللَّه ـ تعلّق تلميذه الشيخ عبدالفتاح أبو غدّة به، وولاءه له، وتبجّحه باستطالة شيخه المذكور في أعراض أهل العلم والتقى، ومشاركته له في الهمز واللمز.

وقد سبق أن نصحناه بالتبرؤ منه، وإعلان عدم موافقته له على ما صدر منه، وألححنا عليه في ذلك، ولكنه أصرّ على موالاته له، هداه اللَّه للرجوع إلى الحق، وكفى المسلمين شرّه وأمثاله.

وإنا لنشكركم على ما كتبتم في هذا الموضوع أن يجزيكم عن ذلك خير الجزاء، وأفضل المثوبة، لتنبيه إخوانكم إلى المواضع التي زلّت فيها قدم هذا المفتون ـ أعني محمد زاهد الكوثري ـ كما نسأله سبحانه أن يجعلنا وإياكم دعاة الهوى، وأنصار الحق، إنه خير مسئول، وأكرم مجيب.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الختم[1]

(١) مطبوع مع «براءة أهل السنة» (٣ ـ ٤) ط. ثانية في الرياض ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م.

* امتيازات الكوثري:

تقدّم أن الكوثري سلّم على إسلامه عدة مرات في عداوة شيخ الإسلام الذي يعتبر نصيرًا لمذهب السلف. ومن ذهب في الحنق على أئمة الأمة وعلمائها هذا المذهب الردي، وتعصّب «لكل من يحسب أنه يتصل بدم جركسي»[١، ٢].

يمتاز الكوثري على غيره، في عداوة مذهب السلف الصالح، بأمور عديدة. ومن أهمها:

* الافتراء والكذب:

كان الكوثري «يرتجل الكذب ويغالط»، ونسب إلى بعض العلماء والرواة ما لا يوجد في الكتب، للتشكيك في رواياتهم، تحقيقًا لهدفه، وشفاءً لغيظه منهم. وإليكم بعض الأمثلة:

١ ـ افترى على الحفاظ «أبي محمد العسّال» أنه ضعّف «أبا الشيخ الأصبهاني»، بدون أن يذكر مصدرًا لهذا الكلام. فلما راجعه فضيلة الشيخ سليمان الصنيع (عضو مجلس الشورى، ومدير مكتبة الحرم المكي سابقًا) في داره بمصر، وسأله عن ذلك، فلم يحصل على نتيجة منه. فقال الشيخ الصنيع:

«ولو كان صادقًا فيما نسبه إلى «أبي أحمد العسّال» لأوضحه لي حين سؤالي له، والذي يظهر لي أن الرجل يرتجل الكذب ويغالط...»[٣].

---

(١) «الانتقاء» لابن عبدالبر (ص٣ ـ كلمة الناشر القدسي).

(٢) انظر إلى مقالة العلامة محب الدين الخطيب في مقاله «عدوان على علماء الإسلام يجب أن يكون له حد يقف عنده «المطبوع في مجلة الزهراء (٦/ ٤٣٣).

(٣) «طليعة التنكيل» للمعلمي (١/ ٣٤).

٢ ـ من كذبه وافترائه أنه نبز الإمام ابن قيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» زاعمًا أن «زفيلاً» اسمًا لجدّه من قبل أمه. وأراد بنبزه هذا تحقيره على عادة العرب. كما قال المشركون في حق النبيّ ﷺ: «أمر أمر ابن أبي كبشة»، وهو جدّ النبيّ ﷺ من قبل أمه.

ولما سأله الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري: «أين وجدت أن ذلك اسم لجدّ ابن القيم لأمّه فلم يجب بإيجاب»[1].

٣ ـ من افترائه واجترائه على الكذب أنه ذكر في «ذيول تذكرة الحفاظ» (ص١٨٥ ـ بتحقيقه) في ترجمة الشيخ المفيد شمس الدين محمد بن خليل المنصفي الحنبلي الحريري (ـ ٨٠٣هـ) بعض مخازيه ثم قال:

«وهذا الشيخ الحرّاني ـ يعني ابن تيمية ـ مع كونه ألّف في إبطال الحيل تراه، وأتباعه من أكبر المجترئين على تحليل المحرّم، وأنهم كانوا يتقاضون ممن وقع في مأزق من أمر النكاح والطلاق نحو خمسة دراهم، فيفتون له»[2].

* **الخيانـــة:**

اشتهر الكوثري بالخيانة في النقل عند أهل العلم الفضلاء. وهذا أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مراجعة.

❑ قال العلامة المعلمي:

ومن فواقره: تقطيع نصوص أئمة الجرح والتعديل، يختزل منها القطعة التي توافق غرضه، وقد يكون فيما يَدَعُه من النص ما يبيّن أن معنى ما

---

(١) «ابن قيم الجوزية» للدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد (١٨ ـ ١٩) سمّى الكوثري ردّ السبكي على ابن القيم «السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل» ونبزه بهذا اللقب سلامة العزامي الحلولي تبعًا للكوثري في كتاب «فرقان القرآن» (١٣٥، ١٣٧).

(٢) راجع «الرد الوافر» (ص٨٤ ـ تعليق زهير الشاويش).

يقتطعه غير المتبادرمنه عند انفراده. . .»[١] .

❑ وقال الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد:

«وقد فضح في هذا من أهل العلم، بل من أصدقائه وخاصته، منهم حسام الدين القدسي في مقدمة (الانتفاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء). ومنهم أحمد وعبدالله ابنا الصديق الغماري. وهو لا يرى شيئًا غير أبي حنيفة. ولذلك لقّبه أحمد الغماري في كتاب «بدع التفاسير» (ص١٨٠) بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[٢] .

*** الغدر والخداع:**

من بلغ به الجنون إلى هذا المستوى المتدني كيف ينجو من الغدر والخداع؟!.

وقد غدر الكوثري، صاحب الفضل الكبير عليه حينما خالف بعض تعصابته الباردة ألا وهو «شيخ الإسلام مصطفى صبري» (آخر مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية). فكيف بمن غيره[٣] .

أما خداعه السيد حسام الدين القدسي (ناشر كتبه وتعليقاته وحواشيه)، فأشهر من أن يذكر. ولمّا اطلع على «دخلة في علمه وعمله» أعلن براءته من تعليقاته الحاقدة على أئمة الإسلام قائلاً:

«خيفةً أن أشاركه في الإثم، إذ أنا سكتُّ عن جهله بعد علمه، سقتُ هذه الكلمة الموجزة معلنًا براءتي مما كان من هذا القبيل»[٤] .

---

(١) راجع الأمثلة على ذلك في «طليعة التنكيل» (ص٥١).

(٢) راجع «ابن قيم الجورية» (٢٠ ـ ٢١) مفصّلاً.

(٣) «المقابلة بين الهدى والضلال» (ص٨٦ ـ تعليقًا).

(٤) «الانتقاء» (ص٣ ـ مقدمة القدسي).

فحذارِ حذارِ من تعليقات الكوثري على الكتب، التي تغيّر التاريخ، وتشوّه الحقائق بكل خسّة ودسيسة.

* **الفجـور:**

فجور الكوثري مع خصومه، ووقوعه فيهم فحدّث عنه ولا حرج. وما تقدّم من مخازيه في هذا الأمر يكفي لمن يتعظ ويعتبر[١].

قال الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد:

«فالكوثري خصم ملدّ ليس لابن القيم فحسب، بل لكل من ليس حنفيًّا. ومن أراد كشف ذلك فلينظر كتاب «التنكيل» للمعلمي، وغيره من كتب العلماء، التي أبانت عن تحامله وطيشه وتجاسره على علماء السلف من الصحابة ﷺ فمن بعدهم...»[٢].

* **التمادي في الباطل:**

ما تقدّم من الشائنات كفى لمعرفة هذا الرجل، ومن حذا حذوه في عداوة علماء السلف عامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية خاصة. فكيف بالزوائد[٣] التي هي أشدّ خطرًا على دين الإنسان وعلمه»[٤] اهـ.

* * *

(١) ومن يريد الزيادة فليراجع «براءة أهل السنّة» للدكتور بكر بن عبدالله، يجد هنالك الخطوط العريضة لعواهنه وعواقبره ومخزيه.

(٢) «ابن قيم الجوزية» (ص٢٠).

(٣) مثل البدعة، واتباع الهوى، والحقد، والحسد، وغيرها من العظائم.

(٤) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح الدين مقبول (٢/ ٥٢١ ـ ٥٣٥).

obeikandl.com

* الشيخ طاهر الجزائري رائد الإصلاح التعليمي في بلاد الشام في العصر الحديث (١٢٦٨هـ-١٣٣٨هـ) - (١٨٥٢ - ١٩٢٠م):

❑ قال عنه صاحبه الشيخ جمال الدين القاسمي: «هو الشيخ المفيد، والمرقي الوحيد»[١] .

❑ وقال الشيخ رشيد رضا «العلاّمتان الجزائري والقاسمي كانا سيَّين في سعة الاطلاع وحسن الاختيار، إلاّ أن الجزائري أكثر اطلاعًا على الكتب، وولوعًا بالاستقصاء والبحث، والقاسمي أشد تحريًا للإصلاح وعناية بما ينفع الناس»[٢] .

❑ وقال الشيخ القاسمي: «الشيخ طاهر أعجوبة في عصره في الذكاء، وفي التنقيب على الآثار العلمية، فهو شيخها في عصره بلا ريب، بل وفيما قبل عصره»[٣] .

❑ وقال ظافر القاسمي عنه وعن والده جمال الدين القاسمي: «من آيات اللّه على خلقه، وعاملاً كبيرًا في اليقظة الفكرية والإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي».

❑ قال عنه تلميذه محب الدين الخطيب وفي عنايته به بعد وفاة والده وهو صغير «ثم قيّض اللّه لهذا اليتيم الضعيف أستاذًا في أسمى مراتب الإنسانية، فأخذ بيده، وأحسن توجيهه في الطريق الذي هداه اللّه إليه في الحياة: الشيخ طاهر، فهو الإنسان الكامل، هو علامة الشرق والإمام الحكيم. . فهو أبوه الروحي بعد والده الراحل»[٤] .

---

(١) «جمال الدين القاسمي وعصره» لظافر جمال الدين القاسمي (ص٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤١). (٣) المصدر السابق (ص٤٣٢).

(٤) «مذكرات محب الدين الخطيب» لمحب الدين الخطيب (ص٦ - ٧) ط١، (ص٩١) ط٢.

❑ وقال تلميذه الأستاذ محمد كرد علي أول رئيس لمجمع اللغة العربية في دمشق: «كان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد، والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه»[١].

❑ وقال عنه تلميذه الشيخ محمد سعيد الباني: «وصفوة القول؛ إنه كان من أعظم أركان النهضة العلمية والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصًا دمشق»[٢].

❑ وكانت الصلة بينه وبين مجدد السلفية بالشام الشيخ عبدالرزاق البيطار أقوى الصلات. وكانت أقوى صلاته بصاحبه جمال الدين القاسمي، لما كانا يشتركان به من حس إصلاحي متوقد، ودفعا عربة التجديد الديني والفكري. واستفادا من مجلس الشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام، استفادا من علمه وعقيدته الأثرية، وهديه وأخلاقه المرضية.

❑ ولقد تربى الشيخ طاهر وتأثر بشيخه عبدالغني الغنيمي الميداني الذي كان «على جانب عظيم من التقوى والورع، يمثل صورة من السلف الصالح، فطبع الشيخ طاهرًا بطابعه، وأنشأه على أصح الأصول العلمية الدينية، وكانت دروسه صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضّاعين»[٣].

(١) «محاضرات عن محمد كرد علي» لشفيق جبري (ص٣٢، ٣٣) ـ مؤسسة الرسالة.
(٢) «تنوير البصائر في سيرة الشيخ طاهر» لمحمد سعيد الباني (ص٧٠) ـ الطبعة الأولى.
(٣) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (ص٩) ـ دار الفكر ـ دمشق.

❑ قال الشيخ محمد كرد علي عن أستاذه طاهر الجزائري: «سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم، ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن»[١] .

❑ وقال الأستاذ علي الطنطاوي: «كان من المؤلفين المكثرين، إنْ عُدّ المؤلفون المكثرون، وكان من أئمة المربين، إنْ ذُكِر المربّون، وكان من رؤوس المصلحين، ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها، ونتفيأ ظلالها، وننعم بخيراتها»[٢] .

❑ وقال الدكتور عدنان الخطيب: «إن تاريخ النهضة الحديثة في مصر والشام مرتبط أشد الارتباط بحياة ثلاثة من عظماء الرجال، تدين البلاد العربية لهم، كما تدين البلاد الإسلامية بإيقاد أول شعلة أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم... هؤلاء الثلاثة هم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطاهر الجزائري»[٣] .

❑ وقال الدكتور مازن المبارك: «لقد كان الشيخ طاهر شعلة نشاط عربي وإسلامي، ثقافي وفكري وإصلاحي، وكان واحدًا من أكبر رواد النهضة أثرًا في بلاد الشام»[٤] .

❑ وقال الأستاذ سامي الكيالي:

«استطاع هذا المصلح أن يخلق مدرسة في دمشق تقول برأيه، وتسير

---

(١) «المذكرات» لمحمد كرد علي (٣/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤) ـ مطبعة الترقي بدمشق.

(٢) «رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي (ص٣٨٠).

(٣) «الشيخ طاهر الجزائري» لعدنان الخطيب (ص١١٩). لم يكن الشيخ طاهر الجزائري وهو السلفي المنهج على منهج الأفغاني أو محمد عبده وسيأتي الحديث عنهما فيما بعد.

(٤) «الشيخ طاهر الجزائري» مقال لمازن المبارك.

وفق منهجه، وهي مدرسة ضمّت الكثير من الأعلام، والتي مهّدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية، وتلك النهضة التي تمتع بثمراتها أبناء هذا الجيل[١] .

❑ وقال الأستاذ نجاة قصاب حسن:

«والأهم في حياته أنه دائرة معارف كاملة تجمّعت في عقل إنسان واحد، فكان مطلعًا على سياسة، ومصلحًا حكيمًا، لم يدخر وسعًا في بث العلوم والمعارف، ومجتهدًا في الدين بما يوافق روح العصر.. ولا أرى أن معرفة أي من مثقفينا بتاريخ الثقافة في هذا القطر (السوري) تكتمل إن لم تبدأ من طاهر الجزائري وأمثاله من العلماء المصلحين»[٢] .

❑ وإذا كان العالم لا يمتاز عن غيره من العلماء إلا إذا تسلّح برؤية ومشروع، واستهدف في حياته أهدافًا لا يرى لحياته وأعماله قيمة إذا لم تخدمها وتسعى به إلى الوصول إليها، فإن الشيخ طاهر الجزائري ـ رحمه اللّه ـ كان يهدف من وراء كل جهده وأعماله ومؤلفاته إلى إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها الحضارية، وتسليحها بكل ما يلزمها، كي تستأنف دورها في رعاية أبنائها، وتوفير أسباب الترقي والتقدم لهم في جميع مجالات الحياة، ومن ثمّ القيام بدورها في قيادة العالم.

❑ كان للشيخ طاهر أثره العظيم في دفع الحركة الثقافية بدمشق، إذ أنه تولى أول أمره التعليم وشارك في تأسيس جمعية علمية اجتماعية مع بعض العلماء والوجهاء سُميت «الجمعية الخيرية» ثم التقى بالوالي مدحت باشا وأقنعه بضرورة إنشاء مدارس حكومية حديثة، واقترح عليه أن تتولى الجمعية المذكورة تنفيذ الخطة المرسومة، وعلى ذلك استطاع بمعونة بعض الشباب

(١) «الأدب العربي المعاصر في سورية» لسامي الكيالي (ص١٠٢) ـ طبع دار المعارف.
(٢) «طاهر الجزائري لنجاة قصاب حسن ـ جريدة الثورة السورية عدد ٨١٥٩ (١٨/١/١٩٩٠م).

تأسيس تسع مدارس اثنتان منها للإناث. ولما عُيِّن مفتشًا عامًّا لمعارف سورية بدأ جهودًا إضافية جبارة لإصلاح أساليب التعليم والدعوة لطلب العلم.

❑ وعمل إلى جانب ذلك على تأسيس دور عامة للكتب منها المكتبة الظاهرية بدمشق، وبذلك عرفت دمشق أول مكتبة عامة في تاريخها الحديث. وجمع لها الشيخ طاهر بتفويض من الحكومة ما تبقّى من المخطوطات الموقوفة في الجوامع والمدارس بعد أن كان قد سُرِق كثير منها أو تلف، ولقي في سبيل ذلك عنتا ومشقة حتى إنه هُدِّد بالقتل، ولم يقتصر دوره على تأسيس المكتبات العامة في دمشق وحدها، بل تعدّاها إلى غيرها من المدن مثل حماة، وحمص، وطرابلس وعهدت الحكومة العثمانية إليه وظيفة التفتيش على خزائن الكتب في ولاية سورية ومتصرفية القدس. وفي هذه الفترة ساعد الشيخ طاهر الشيخ راغب الخالدي في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس، وأعدّ لهذه المكتبة فهرسًا خاصًّا.

واستطاع إقناع الوالي مدحت باشا بضرورة تأسيس مدارس حكومية تدرس فيها العلوم بالعربية، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة.

❑ تحدّى الشيخ طاهر بمشاريعه هذه «النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية الأجنبية التي بدأت تتوالى على دمشق بدءًا من «إرسالية الآباء العازاريين» إلى دمشق سنة ١٧٥٥م والتي أسست مدرسة لها بعد عشرين سنة من وصولها»[1].

وأقنع ـ رحمه اللّه ـ رجال الحكومة العثمانية بأن مدارس الإرساليات الأجنبية كلها تدرس العربية وآدابها خلافًا لمدارس الحكومة العثمانية، فإذا طالت هذه الحال نشأ في المدارس الأجنبية جيل له تفكير خاص ومذاهب

(١) «الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث» لحازم زكريا محيي الدين (ص٣٤) ـ دار القلم بدمشق.

سياسية خاصة، فيجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التي يتبعها الأجانب.

❑ وجاب الشيخ طاهر القرى والمدن في سورية ولبنان، وفلسطين، ومصر، والحجاز، وتركية وفرنسا، مفتشا عن الكتب والمخطوطات، داعيًا إلى ما يؤمن به من قيم وأفكار تجديدية، محرّضًا الناس في كل مكان على افتتاح المدارس وتأسيس المكتبات العامة.

ولما التقى بوالي مصر عباس حلمي الثاني في ٧ صفر ١٣٢٨هـ أشار على الوالي، بتأسيس مدرسة للغة العربية تُقصد من كل جهة، كما أشار عليه بتأسيس دار للترجمة، وعمل مطبعة لطبع ما يُترجم، وجعل مصححين للترجمة.

*** حلقة الشيخ طاهر الفكرية:**

كان محور وهدف هذه الحلقة هو تعلم العلوم الحديثة، وتدارس التاريخ والتراث الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسن الأخلاق والقيم الإسلامية، والانفتاح على الغرب من خلال الأخذ بالصالح من مدنيته الحديثة، ونبذ كل ما لا ينسجم مع الشريعة والعقيدة الإسلامية، وكانت تدور في هذه الحلقة أحاديث ومحاورات عن الوسائل التي يجب الأخذ بها لرفع مستوى التعليم والتفكير عند المسلمين في الدولة العثمانية.

وكان من أهم روّاد هذه الحلقة التي ترأسها الشيخ طاهر الجزائري علماء مصلحون، وكتاب معروفون كالشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد السلفية بالشام، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ سليم البخاري والشباب من أمثال: محمد كرد علي، ومحمد سعيد الباني، ومحب الدين الخطيب، والشيخ محمد علي مسلم، ورفيق العظم، وعبدالحميد الزهراوي، وسليم الجزائري.

كان ـ رحمه اللّه ـ يقول: «إن العلم أنشودة المتعلم أينما وجده تعلمه،

كما أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»[١] .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه، ولو لغة مالطة، فقد يجئ زمان تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كله نافع، والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة»[٢] .

❑ وكان للشيخ رأى طيب في طريقة إصلاح الأمة والنهوض بها وذلك عن طريق التربية والتعليم بالتدرج فيقول:

«إن الإصلاح على اختلاف أنواعه لا بد أن يكون على سبيل التدرج، وفقًا لمقتضى السنن الطبيعية؛ لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يثبت أن يرجع من حيث أتى»[٣] .

قال: «إن أفضل الطرق في إنهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر، وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة، ولكنها أمينة الغائلة، لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي»[٤] .

❑ وقال محمد كرد علي ملخصًا منهج شيخه الجزائري: «وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم، وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول: إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة»[٥] .

* دعوته إلى الاجتهاد:

ولقد دعا الجزائري إلى الاجتهاد، ونبذ روح التعصب المذهبي.

(١) «تنوير البصائر» للباني (ص٧٨) ط١.
(٢) «المذكرات لمحمد كرد علي» (٣/ ٧١٩).
(٣) «تنوير البصائر» للباني (ص٧٩).
(٤) «المذكرات» لمحمد كرد علي (٣/ ٧١٩).
(٥) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (ص١٤).

❑ قال الأستاذ محمد كرد علي: «هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبليًّا ولا مالكيًّا ولا حنفيًّا، بل مسلمًا يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص، ويُحسن ظنه بأئمة المذاهب المعروفة، ويتجهّم لمن يتجرأ على النيل من أحد العلماء عامة، ويعمل بما صحّ له من الدليل في الكتاب والسنة»[1].

*** دعوته إلى اقتباس النافع من علوم الغرب ومدنيته مع نقده للمدينة المادية:**

كتب في رسالة له:

«إن الاقتباس من الأمم المترقية، دليل على النباهة، لا كما يظن البله من أن في الاقتباس غضاضة، ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الأمور النافعة، لا كما يظنه المتكايسون من أن الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء حتى أدّاهم الأمر أن يقلدوهم في الأمور التي يودون هم أن يخلصوا منها»[2].

❑ وقال الشيخ الجزائري ناقدًا المدنية المادية:

«وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروّعات، زائدًا في نشاطكم في إفادة الأمة، فإنها في احتياج شديد إلى من ينير لها الطريق الأقوم، من أرباب الوقوف والإخلاص، وأعظم ما تحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلّق بها، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالي الأمور، وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية، التي كان الغربيون قديمًا يفتخرون

(١) المصدر السابق (ص١٣).
(٢) المصدر السابق (ص٣٤).

بها، ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها، مما هو مبني على مجرد مراعاة الأمور المادية دون غيرها، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة، . . . ومما ينبغي أن تحثوا عليه تعلّم صنعة ما، أي صنعة كانت، ولا يكون أحد خاليًا عنها، وتجعل هذا مبدأ جديدًا لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية»[1] .

❑ ومن آراء الشيخ التربوية:

«١ ـ إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية.

٢ ـ إدخال التربية العملية فيها، وذلك بتعويد التلاميذ على الصدق.

٣ ـ السعي في مدرسة القراءات السبع، مثل ما كان من قبل، ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة، أو يخطب فيها، فإن مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير»[2] .

* دفاع الشيخ طاهر عن التاريخ الهجري واللغة العربية:

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري، ويفاتحوننا في ذلك، كأنهم لا يعلمون أنّا نعلم ما يرمون إليه عن بُعد، لكل أمة شعار، إذا تركته طُمع فيها، واستضعف جانبها، وربما صارت بعدُ مدمجة في غيرها. وقد سعى أناس منذ عهد بعيد، في أن يصفوا ما يقوي أمر الإسلام عمومًا، والعربي خصوصًا، فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه، فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية، والسعي في تبديل خطها، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها، فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم، حتى أثّروا في كثير من أبناء جلدتنا، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء، والوقوف على أسرار الأمم، فكان ما كان

(١) «كنوز الأجداد» (ص٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص٣٧).

مما هو معروف، ثم زاد الأمر، فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري، وساعدهم في ذلك (جبت) مصر، ففرحوا فرحًا لا مزيد عليه. وقال بعضهم: الآن شفينا الغليل من هذه الأمة، غير أنّ كثيرًا ممن انتبه لهذا الأمر سعى في إعادته على قدر الإمكان، فامتعض أولئك القوم، وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك».

وهذه المسألة نظرًا لتعلقها بتاريخ تأثر الشرق، لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يومًا. وليت شعري كيف يُلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري، فهل انقرض التاريخ الهجري؟ وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء؟

فإن قالوا: إن المقصود توحيد التاريخ في الأمم، وأوربة هي القوية الآن.

قيل: إن أوروبا لها تاريخان: أحدهما شرقي والآخر غربي، وكل يؤرخ به قوم منهم، فهل أوقف ذلك التجارة أو أثّر في المدنية شيئًا؟ ولِمَ لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم، لتتحد المقاييس في الأمم، وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ. وقد رأيتهم يتعذرون عنه، ويعدّون ذلك متانة في الأخلاق، فانظر ما وصلنا إليه»[1].

* جمال الدين القاسمي المصلح الكبير ووقوفه ضد المقلدة والقصّاص والمخرّفين:

كتب إليه مجدد السلفية بالشام الشيخ عبدالرزاق البيطار:

يا مقيما مدى الزمان بقلبي ... وبعيداً بشخصه عن عياني

أنت روحي إن كنت لست تراها ... فهي أدنى إليّ من كل داني

(١) «كنوز الأجداد» (ص٤٠ ـ ٤١).

وقال هو عن نفسه: «ليفعل أعدائي بي ما يريدون، فأنا أعتبر حبسي خلوة ونفي سياحة، وقتلي شهادة» «لقد رتبت خطة أسير عليها لخدمة العلم وإرجاع مجد الإسلام والقيام بالرسالة التي ينبغي أن يقوم بها كل مصلح، وأهم أهدافها: بيان عظمة الإسلام، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وتنبيه الناس إلى ما دخل عليه من بدع وخرافات هي غريبة عنه»[1].

كان النهج الغالب على أهل العلم في دمشق قبل القاسمي الأخذ بأحد المذاهب الأربعة المعروفة التي استقرّ عليها الفقه، لا يخرج أحد من العلماء أو طلاّب العلم عنها ظهر القاسمي في الشام يوم كان فيها أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمائم العلماء وألقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين، ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئًا، فاتُهِمَ العلم. ولم يفتهم صرف الأوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده تبعًا للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده؛ فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالمًا يتصدى للتدريس والتصنيف ويبين حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد[2].

كما كان عصره عصراً كثرت فيه الطرق الصوفية وقامت بجانبها الخرافات والضلالات والانحرافات... وجمد الناس على حالة من التأخر لا يريدون الخروج عنها مع هبوب رياح التغيير من الغرب، ومع الاضطرابات في جميع جوانب الحياة العامة.

ولم يكن قبل القاسمي في دمشق كذلك أثر للدعوة السلفية التي انقطعت بعد ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، فجاء الشيخ جمال الدين والشيخ عبدالرازق البيطار مجدد السلفية في بلاد الشام بدعوة جديدة على المدينة تقريبًا، بل على بلاد الشام دهش لها الأهالي فضلاً على الحكومة التي

(١) «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة (ص٧) ـ دار القلم بدمشق.
(٢) مجلة المنار (٧/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

أخذت تتعقبها ولا تغفل عنهما ألبتة، وخشيت أن يستقطبا الناس بدعوتهما كما صغ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، وأدركت الحكومة أن قدرات الشيخين تسير بهما نحو دعوة منظمة كدعوات المصلحين ممن سبقوا فكانت حادثة المجتهدين عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) ووجهت التهمة إلى القاسمي وعبدالرزاق البيطار وجمع من أصحابهما بأنهم يردوا على الأئمة المجتهدين، واحتجز القاسمي من دون زملائه كلهم في السجن، ولم يخرج إلا بشفاعة القاضي ووساطته، وادعى الناس ومعهم المفتي أن القاسمي يدعو إلى مذهب يسمى المذهب الجمالي. وكان لهذه الحادثة أكبر الأثر في توجيه تفكيره، وفي طريقة التأليف ومواعظه ودروسه العامة. قال الشيخ القاسمي:

زعم الناس بأني ... مذهبي يُدعى الجمالي
وإليه حينما أفـ ... ـتى الورى أعز ومقالي
لا وعمر الحق إني ... سلفي الانتحال
مذهبي ما في كتاب ... اللّه ربي المتعالي
ثم ما صح من الأخـ ... ـبار لا قيل وقالِ
أقتفي الحق ولا أر ... ضى بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلاً ... وعمًى في كل حالِ

وقال في هذا المعنى:

أقول كما قال الأئمة قبلنا ... صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
أألبس ثوب القيل والقال باليًا ... ولا أتحلّى بالرداء المذهبِ[1]

وقال:

زعموا بأن من اقتفى الآثارا ... أولى الذين تقدّموا الإنكارا

(١) «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» لعبدالرزاق البيطار (١/ ٤٣٧)، ومجلة المنار (٨/ ٦٣٣).

كلا فأجر الاجتهاد لهم سوى متعصب يتأوّل الأخبـــارا[١]

❑ وفي عام ١٣٢٤هـ أقام متعصبو المذاهب عليه وعلى الشيخ البيطار تهمة جديدة فاتهموهما بالوهابية، وكانت تهمة غير هينه، ونجى اللّه منها القاسمي بسفره حينئذ إلى بعلبك وبيروت وصيدا.

❑ وفي عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) زار دمشق السيد رشيد رضا، فاستقبله القاسمي والبيطار وثلة من العلماء وصحبوه إلى المسجد الأموي غداة يوم وصوله، فقرأ فيه درسًا، ووعد بقراءة درس آخر في اليوم التالي، لكن فتنة هوجاء ثارت عند ذلك، وجُوبة الضيف بالأسئلة الغريبة، فكثرت الضوضاء، وأحاط به خصومه ومعهم جماعة من العامة، فقذفوه بما يغيظ من الكلام، وهاجوا به.. ثم نادى أعداؤه بعد صلاة التراويح في ذلك اليوم بذهاب الدين وضيعته، وصاروا يندبون ويبكون ويصرخون، وحرّضوا العامة على التجمّع أمام دار الحكومة ففعلوا، وتبعهم خلائق لا يحصون في ذلك اليوم المزدحم، وجعلوا يصرخون ويشتمون السيد رشيد الذي اضطر لتهدئه الفتنة إلى مغادرة البلد، ولم يكن مضى على وصوله إليها سوى يومين، وعندئذ تفرّد مثيروا القلاقل بالقاسمي، وأشاعوا في البلدة أنه هو الذي دعا السيد إلى الزيارة، وأشعلوا عليه حربًا اضطرته إلى لزوم بيته ثلاثة أشهر، فلم يغادره إلا لصلاة جمعة في مسجد صغير قرب داره، وعانى في أثناء ذلك ضيقًا شديدًا، ولعله كان يحاذر على نفسه الشر والأذى، وبقيت أسرته «تكابد الأكدار والأحزان ولا أحزان المآتم»[٢].

❑ وفيها قال الأمير عادل أرسلان:

حزب التقهقر ما لعينك دامية تبكي أسى وعن الهدى متعامية

(١) المصدر السابق.

(٢) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (٥٩٤ ـ ٥٩٥).

حزب التقهقر ما لقلبك خافقا تسقي الثرى بمدامع لك هامية
يا أهل ذاك الحزب حزتم عندنا شرف التقهقر رتبة متسامية

* * *

ما دخل وهّابيّتي في أمركم ماذا اخترمت لتُنكروا إسلاميه
سبحان من سمك السماك ومن برى هذي الخلائق لا أطيل كلاميه[1]

❑ وفي رمضان من عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) يُدعى القاسمي وصديقه البيطار لسؤالهما عن الوهابية، وعدد الوهّابيين في الشام. وقد فُتشت كتبه أكثر من مرة، وأخذ منها ثلاثة أكياس، ومُنع من طباعة بعض مؤلفاته.

*** جهر الشيخ القاسمي بالأخذ بالاجتهاد:**

أول ما جهر به جمال الدين القاسمي من أفكاره في الشام هو الأخذ بالاجتهاد، حاول فتح الباب الذي أُغلق منذ زمان طويل، ووضعت عليه الأقفال الثقال... فروّع بذلك أصحاب المذاهب، وقامت بينه وبينهم حرب باردة أو ساخنة منذ ذلك الحين، وسمّوه بما سمّوه.. وسماهم هو الحشوية الجامدين. وقال فيهم: إنهم يجمدون على العبارات في كتب الفقه «يذيبون فيها أدمغتهم ليفهموها ويستنبطوا منها منطوقًا ومفهومًا، ويضيعوا أوقاتهم بما لا يفيد الأمة شيئًا مذكورًا. ولو صرفوا أوقاتهم لفهم القرآن والسنة لأتوا منهما بالعجب العجاب، ونشلوا الأمة من تأخرها وجمودها»[2].

وكان يقيم الحجة على الفقهاء من أصحاب المذاهب الذين لا يخرجون عن أقوال الأئمة قيد أُنملة، مع «أن مذهب أبي حنيفة الآن هو مذهب تلميذيه

(١) «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة (ص١٤٣ ـ ١٤٤).
(٢) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لمحمود مهدي الاستانبولي (ص٥٨، ٨٤) ـ المكتب الإسلامي.

أو أحدهما على الغالب، وقد خالفا إمامهما في كثير من أقواله. . . وكان في حياته يُسَرّ بهما. وهذه هي طريقة الأئمة الأربعة»[١] . ولذا فيرى أن تقبل آراء كل فقيه قديم، ولكن على بصيرة وحجة، هي حجة إقامة الدليل والنقاش الصحيح[٢] .

وكان من حججه على الفقهاء أن الأئمة الأربعة أنفسهم كانوا يرفضون التقليد؛ لأنهم أمروا تلامذتهم بالاجتهاد ضمن مذاهبهم، لا أن يجعلوا كلامهم في ذاته حجة؛ واستشهد على هذا بكلام المزني في مختصره لكتاب «الأم» للشافعي الذي قال: «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ ومن معنى قوله لأقربه على من أراده، مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه»[٣] . وكان يقول: «ألم يقل الشافعي إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي عرض الحائط! ألم يقل أبو حنيفة: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يأخذ بكلامي!».

من أجل ذلك ارتضى القاسمي كتب المذاهب كلها وأخذ منها ما يحتاج إليه مع أخذه بالدليل، هذا حين كان يستحيل على فقيه أن يرضى برأي في غير مذهبه»[٤] .

❑ وصرّح القاسمي لطلابه وقال: «إن مذهبي ألاّ أتقيّد بمذهب من المذاهب، بل آخذ من كل مذهب بماكان أقوى دليلاً»[٥] .

---

(١) المصدر السابق (ص٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص٢٧).

(٣) المصدر السابق (ص٤٤)، وانظر «مختصر المزني» «المقدمة».

(٤) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٦٠٦).

(٥) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» للاستانبولي (ص٨١).

ولشدة اهتمامه بالاجتهاد ومحاربة التقليد الأعمى اهتم بعلم الأصول اهتمامًا خاصًّا، فطبع كتبه وحثّ على التأليف فيه.

وكان يحمل على التعصب المذهبي الذي أدى لتأخر المسلمين وفساد أنظمتهم وضياع حقوقهم وهددهم بالهلاك؛ لأن الأمة تخضع لمذهب حاكمها؛ فأيام الأتراك حكمت المحاكم على مذهب الحنفية، وقبلها كان الحكم على غيره.. وقد توسع الأمر فقامت أربع محاكم على أربعة مذاهب، مما أدى للفوضى ونفور الناس وترك الشريعة، وهذا ما حصل حينما طلبت الحكومة العثمانية من فقهاء المذهب الحنفي أن يعدلوا من مجلة الأحكام الشرعية ما يتعذر تطبيقه لتغير الزمن فيأخذوا من المذاهب الأخرى، فأبوا تعصبًا، مدعين أن ذلك يعدّ تلفيقًا، مما دفع المسئولين دفعًا إلى الأخذ بالقوانين الأوروبية[1].

كان تعدد المذاهب مع جمودها إذن يؤرقه.. وكان يريد أن يأخذ بالحسن الموافق من كل مذهب، ولقد تأثر في هذا بالشيخ محمد عبده الذي يسمعه يقول: «نحن في حاجة إلى مذهب ينتخب من المذاهب الأربعة» وعقب القاسمي على ذلك بالقول: «وهذا الكلام كان يدور معناه في خلدي من أزمان، إذ أنّ جعل الأمة أو بلد من البلاد أو قوم من الناس على مذهب واحد فيه من الحرج والعنت ما فيه، ودين اللّه يسر.. وفي مجموع فروع الأئمة ما يعود على الأمة باليسر والتيسير، مع المحافظة على أصول الدين.. ولي نية بجمع كتاب في الفروع في ذلك»[2].

ويرى جمال الدين القاسمي أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد، وقد عرف لكل زمان مجتهدوه الذين ترجمت لهم كتب الرجال[3]. ولا قيمة

(١) المصدر السابق (ص٨٤).

(٢) المصدر السابق (ص٧٠).

(٣) «كالضوء اللامع» للسخاوي، وحسن المحاضرة للسيوطي.

لإنكار بعض المتفقهة لوجودهم معتقدين أن الأئمة الأربعة في منزلة التشريع، لا في منزلة الضبط والتحرير[١] .

ولقد بسط الشيخ رأيه بالاجتهاد والتقليد في كتابه الفضل المبين[٢] فذكر أن «دعوى بعض المحققين خلو الوقت عن المجتهد المطلق لا دليل عليها، فهل عرف القائل بذلك جميع المسلمين وهم يعدون بمئات الملايين، وتحقق أن كل واحد منهم مقلد؟»[٣] ، «واللَّه تعالى يوجب العمل بالأقوال مع الحجة التي تلزم المؤمن مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]. ذلك لأن التقليد لا يرضاه إلا عامي أعمى أو عالم لم يصل إلى مرتبة كبار الفضلاء من عقلاء المتقدمين والمتأخرين»[٤] .

ويناقش مسألة شروط الاجتهاد التي وضعها بعض العلماء، قائلاً: «إذا لم يشترط اللَّه تعالى هذه الشروط في كتابه، ولا رسوله في سنته، فمن أين تكون حجة يلقم بها كل من يدعي الاجتهاد؟ وأيضًا فهذه الشروط، إما أن يشترطها مجتهد، فليس قوله حجة على مجتهد غيره، أو مقلد، فأحرى ألا يكون كلامه حجة ولا مقنعًا»[٥] .

ومع أنه يقبل كثيراً من هذه الشروط، لكنه يراها غير مستحيلة ما دامت مادة اللغة جُمعت ودُوِّنت، وجُمعت الأحاديث الشريفة، وانتشرت كتب الرجال والخلاف والفروع، «فهل يعسر بعد هذا كله أن يتوقف الذكي النبيه

(١) «الفضل المبين» للقاسمي (ص٨٠ ـ ٨٩).
(٢) «الفضل المبين» (ص٨٠ ـ ٨٩).
(٣) المرجع السابق (ص٨١).
(٤) المرجع السابق (ص٨٣).
(٥) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٣٠١).

عن الحكم أو يشكل عليه الأمر. . وباب الاجتهاد أوسع مما يُضَيِّقون»[١].

ثم يقول: «على أن من نظر إلى هديه ﷺ في تفقيه أصحابه وتعليمه إياهم قواعد الدين وكلياته في أيام يسيرة لكثير ممن يفد مؤمنًا من قبيلته، ويمكث أيامًا في حضرته ﷺ، ثم يرسله ﷺ داعيًا وهاديًا ومرشدًا»[٢].

وهذا النص الأخير من كلام القاسمي مقبول على وجه الإجمال.

وأعجب القاسمي بابن تيمية وآرائه ومواقفه وصبره، ولكنه لم يقلده في كل شيء قال به ولما سأله بعض طلابه عن موقفه هذا قال: «ومن قال لك إنني مقلد لابن تيمية؟ إنما أدافع عنه وأنشر كتبه؛ لأنه مجتهد غير مقلد، وأقواله أقرب إلى الصواب من غيره؛ لأنه جاء متأخرًا عن الأئمة، وزاد اطلاعه على اطلاعهم، وناقشهم جميعًا»[٣].

*** هجوم القاسمي على صوفية زمانه[٤]:**

وكان القاسمي بالمقابل حربًا على صوفية زمانه لا يزال يهاجمهم ويذكر خرافاتهم دون أن يذكر أسماءهم على عادته، إلا أنه يشير إليها في رسائله ومذكراته التي لا ينشرها. ولقد كان يسوءه منهم اثنان، يوسف النبهاني وأسعد الصاحب، وله فيما يبدو ردود عليهم ومواقف ولئن كان الصاحب يجهر بمهاجمة القاسمي في المجالس، وينال منه أمام الوالي والوجهاء، فقد كان النبهاني يهاجم السلفية وأصحابها؛ كتب جمال الدين في إحدى رسائله لمحمد نصيف بلهجة لم تعهد عنه لكنه يعلل سبب هجومه فيقول: «وأما

(١) المصدر السابق (ص٢٠٣).

(٢) المصدر السابق (ص١٠٣).

(٣) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لاستانبولي (ص٤٩ ـ ٥٠).

(٤) لكن يؤخذ عليه التنويه بفضل ابن عربي في كتابه «الفضل المبين» (٣٤٨ ـ ٣٥٤)، وثناؤه على النصير الطوسي ـ اقرأ لظافر القاسمي (ص٢٧٤).

النبهاني فدعوه يمت بغيظه قاتله اللَّه من رجل خرافي أضر بتآليفه كثيراً من البسطاء.. على أن مظهر هذا العصر هو نبذ تآليفه العارية من العلم والأدب، فلا تحرصوا إلا على محاربته بنشر آثار شيخ الإسلام وأمثالها، لا بالمقالات في الجرائد فإن الجهاد معه هو في بث أثر السلف ومشربهم.. عامله اللَّه بما يستحق»[١].

وكان من أسباب هذا الهجوم أيضًا هو أن النبهاني حمل على ابن تيمية وابن القيم حملات شعواء، وإذن فالقاسمي يؤاخذ أصحاب البدع والفتن والضلالات الصوفية مما كان يراه منهم في زمانه، وكان يقول عن مشايخ الطرق: «هم كالعمود الكهربائي، يبث الجنون في رؤوس الناس، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر مرض الصرع العام والذهول العقلي»[٢] أي في حالات الذكر الخاصة بهم. وكان ينهى عن الاختلاط بهم ولو من أجل الاطلاع على أحوالهم؛ فقد زجر تلميذاً له مرة حينما أحب الذهاب لمشاهدة حلقاتهم والسماع لأناشيدهم وموسيقاهم، وقال له: «لا تكثر سواد المبتدعة، ولا تكن قدوة سيئة لغيرك»[٣].

ولقد آله كثيراً تصرفات مشايخ الطرق في دمشق وأعمالهم وادعاءاتهم وكثرة بدعهم، فهاجمهم، وبيَّن ضلال كثير منهم. وقد وصف ما يفعلون من منكرات تضر بالدين، ننقل منها حديثه عن مواكبهم التي كانت تخرج في الربيع، فيقول[٤]:

لا تزال هذه الطوائف تبتدع أموراً تُضحك السفهاء وتُبكي العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة وسلط عليها الأجنبي يهزأ

(١) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٥٩١).
(٢) المصدر السابق (ص٣٥٣).
(٣) «شيخ الشام» للاستانبولي (ص٩١).
(٤) «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» للقاسمي (٢٤٨ ـ ٢٥٠).

بديننا ويقبح أعمالنا ظنًّا منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين. فهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم، والتزموا طرق أشياخهم الذين يدّعون أنهم على آثارهم وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاؤون. أين تصفية الباطن التي هي مدار الطريق، وأين الخمول مع هذا الظهور، وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار، وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية، وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف يتمايل ويتلوى، وأين الإرشاد مع هذه البدع وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك. فلعمري لا نرى إلا رجالاً اتخذوا الطريق وسيلة معاشية. أما آن لهذه البدع أن تموت ولهؤلاء الجهلة أن يتنبهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادي.

إنّ الطريق المسلوك للقوم مبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه وفي التهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم، وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود واستبدال السنة بالبدعة وترك الشرع بهوى النفس. والطامة الكبرى دعوة بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن الإنسان الكامل ونحوه من كتب الصوفية مدعيًا فهمه لإشاراته من طريق الفتح أو الإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر. وقد اتفق أن أحد مُعتَبِري الأجانب دخل أحد الأماكن وقد اجتمع فيه جماعة من أهل الأهواء، فرآهم يرقصون ويصيحون صياح جنون فقال لترجمانه: ما هذه الغوغاء ونحن نعلم أن صلاة المسلمين في غاية الخشوع والآداب وهذه الأمور ليست إلا هذيانًا. فقال له ترجمانه: «إن هذه أكبر صلاة عندهم» يريد تنفيره من الدين الإسلامي ولا حول ولا قوة إلا باللّه. فالدين بريء من نسبة هذه البدع إليه؛ فإن سيرة

النبي ﷺ معلومة محفوظة، إذ لم يترك الحفاظ وكتاب السير شيئًا من أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته إلا دونوه، وجاء الخلفاء الراشدون ومن عاصرهم على أثره ﷺ وكذلك جاء الصوفية المتقدمون على هذا الأثر. فلما تشيخ الجهلاء في الطريق التزموا البدع وجاء من لهم إلمام بكتب القوم فانتحلوا أقوالاً لا يعرفون معناها، وعلّموها لجهلة لا يفقهون، فضلُّوا وأضلوا، إنا للَّه وإنا إليه راجعون. ومن المصائب الفظيعة تركهم الذكر الشرعي وقولهم: «اللام إلا اللَّه» «لوالوها إلا اللَّه» و«ال» بلام مغلظة و«اه» و«هه»، ثم الرقص وأكل النار وضرب الدف أو الناي والنقارات والنقرزان ووضع الدبوس في الذراع والسيخ الحديد في الحنك والشيش وغيرها من المفتريات القبيحة. فحق شيخ المشايخ منع هؤلاء الجهلاء من إعطاء العهود، حتى يعرفوا العقيدة والآداب الشرعية والفروع الفقهية، ففي ذلك خدمة الأمة والدين، وتأييد لكلمة الحق المتين».

*** إنكاره للبدع:**

أنكر القاسمي بدعة وجود إمامين يتعاقبان في مسجد واحد ورأى أنها مخالفة للإسلام. ولما كان في مسجده إمام آخر يصلي بعده فقد قال: «لو كانت العادة أن يصلي الإمام الشافعي بعد الحنفي لاستقلت من هذه الوظيفة، كيلا أقع في هذا المحذور»[1].

وهو إذ يؤاخذ أصحاب البدع ـ وخاصة من الذين يلجؤون إلى الاستعانة بغير اللَّه ـ فإنه يبين أنّ عملهم هذا أفظع من شرك المشركين؛ لأنَّ أولئك كانوا إذا نزلت بهم شدة دعوا اللَّه وحده، بخلاف هؤلاء الذين ينسون ربهم في المصائب ويدعون غيره، ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ**

(١) «شيخ الشام» (ص٨٥).

الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥][١] .

ولقد فصّل القاسمي الحديث في البدع وبحث بها وبيّن أمرها في مقدمة كتابه «إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، فتحدث عن معناها اللغوي والاصطلاحي ورهّب منها ونفّر من المبتدعين، وذكر غالب أنواع البدع التي شاعت في عهده، وحث على الأخذ بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإزالة البدع والصبر في سبيل اللّه. حتى لم يترك في ذلك زيادة لمستزيد[٢] . وفي مقابل هذه البدع دعا من أجل محاربتها إلى الأخذ بالأصول وعلى رأسها الكتاب والسنّة، واهتم كثيراً بهذين الأصلين، حتى قال: «إنني أحترم كل من يكتب في التفسير والحديث في المسائل المهمة ولو كراسًا، فهو أفضل من كثير ممن يعمل الشروح في القضايا والمسائل غير المهمة»[٣] ، ومن هنا فقد رجع القاسمي إلي كثير من كتب التفاسير، وانتقى منها الآراء التي كان يقتنع بصحتها، حتى جمع كتابه الواسع «محاسن التأويل» وهو من أعظم مؤلفاته بل أعظمها على الإطلاق.

أما في الحديث الشريف فإنه كان ينهى عن الأخذ بالأحاديث الضعيفة، ولا يتسامح بالاعتماد عليها ولو في مقام الترغيب بفضائل الأعمال[٤] . وقال: وعلى هذا فلا يجوز الاستشهاد بها، ومن فعل ذلك فعليه أن يشير إلى ضعفها. وكأن من يلجأ إلى الأحاديث الضعيفة يظن الشريعة قاصرة، مع أنّ في الأحاديث الصحيحة ما يغني وكذلك في القرآن الكريم[٥] .

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).

(٢) انظر مقدمة «إصلاح المساجد».

(٣) «شيخ الشام» (ص٨٠).

(٤) انظر «قواعد التحديث» للقاسمي (ص١٢١ ـ ١٢٤).

(٥) «شيخ الشام» (ص٨١).

ويعجبه في هذا الصدد قول الإمام مسلم في مقدمة صحيحه:

«كل من يروي الأحاديث الضعيفة وهو عارف بها فهو آثم غاش للمسلمين»[١] وفي رأيه أن خير طريقة لنشر الدين الصحيح بين الناس الانكباب مع الحصم على دراسة كتب السنة الصحيحة والحث على قراءتها، وقراءة سيرة النبي ﷺ[٢].

ولما كان الحديث الشريف لا يعرف إلا بعلم الجرح والتعديل فقد عده القاسمي من أهم العلوم، قال: «إنه باب من أبواب الدين، ولولاه ما أثبتت صحة هذا الدين العظيم»[٣].

*** تصديه للدهريين:**

ومثلما تصدى جمال الدين للمنحرفين من الصوفية وأصحاب البدع والأهواء هاجم كذلك الدهريين الذين «كثروا في مصر والهند وأطراف سورية، وأضحوا يبثون شبههم بواسطة كثير من المؤلفات الأجنبية والمجلات النصرانية». فَحَجَّهُم في كتابه «دلائل التوحيد»، ونقض كلامهم بكلام الفلاسفة الذي يعولون عليه.

لله در القاسمي: كان القاسمي دؤوبًا في دعوته لا يثنيه عن بيان مذهبه وفكره شيء، ولا يرده عما يعزم ويشرع من الإصلاح أمر. وقد جاهد من أجل نصرة دينه وتطهيره من الأوهام والبدع ورواسب عهود الانحطاط دون أن يعرف للراحة طعمًا ولا للهدوء معنى وبالطريقة اللطيفة التي ذكرناها، ولقي في سبيل ذلك إعراضًا وعنتًا من الناس وازدراءً من خصومه

---

(١) المصدر السابق. وانظر مقدمة «صحيح مسلم بشرح النووي» (ص١٢٣).

(٢) «شيخ الشام» (ص٢٨، ٨٣).

(٣) «شيخ الشام» (ص٨٣).

الذين أخذوا يشيعون عنه الأقاويل ويفتئتون عليه ويتهمونه بالإحداث في الدين، وقد صور حاله معهم وما يجده منهم بقوله: «إن العالم لما أخذ اللَّه عليه الصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن لا يخاف في اللَّه لومة لائم كان معرّضًا من أعداء أنفسهم وعبيد أهوائهم للشنآن والنبز بالألقاب، فتراهم إن وجدوه يميل للنظر في الأدلة على الأحكام والوقوف على مآخذ المذاهب والأقوال وتحري الأقوم والأصلح دون تعصب لإمام ولا تحزب لآخر نبزوه بالاجتهاد وسموه مجتهدًا تهكمًا، مع أنه بذلك لم يقم إلا بواجبه. وإن أبصروا ميله لعلوم الحكمة والرياضيات وتشويقه لاقتطاف ثمارها سموه طبيعيًا. وإن رأوا حثه على البذل والإنفاق في سبيل اللَّه ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء لقبوه اشتراكيًّا..»[١]، وليس غريبًا بعد هذا أن يقول عن جماعة آذوه وعادوه لاختلافهم معه في الرأي: «كثير من الناس بصورة البشر، ولكنهم في الحقيقة أفاع وحشرات سامة»[٢].

ومع هذا فكان كلما ناله أذى من أعداء الإصلاح زاد قوة ونشاطًا ودعاية وكتابة، جاعلاً همه الأعظم أن يجمع بين الدين والعلم الصحيح، ويبث بين الناس فكرة تآخيهما[٣]. وكان مع صبره على الخصوم يجابههم طالبًا للحق ودفعًا للباطل قائلاً: «ينبغي الرد على الخصم مهما كانت دعواه سخيفة، ومصداق هذا من القرآن الكريم الذي ينقل قول اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فردّ اللَّه عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤][٤].

---

(١) «الفتوى في الإسلام» (ص٦٦).
(٢) «شيخ الشام» (ص٨٢).
(٣) المصدر السابق (ص١٧).
(٤) المصدر السابق (ص٨٢).

❑ وكان من أسلوب دعوته كذلك التنبيه على فساد المضلين والإشارة إليهم بأعيانهم ليعرف الناس الحق من الباطل، فنراه يقول في هذا: «كثير من الناس يلومون المصلحين إذا تحدثوا عن بعض الشخصيات المبتدعة حية كانت أم ميتة، ظانين أن هذا الصنيع مغيبة منهي عنها.. وهذا من الخطأ الواضح، فإنه لا بد من ذكر المسيء لدينه إذا وجدت المصلحة. وقد ذم القرآن الكريم كثيراً من المضللين والمفسدين بذكر أسمائهم وأوصافهم، كما ذم الموالين لهم»[1].

❑ لقدكان خصوم القاسمي من أصحاب الخرافات ومن الجامدين من المقلدين الذين لا يُعملون عقولهم فالعقل السليم لا يعارض النقل الصحيح، وكان يرى تصرفات هؤلاء فظيعة «لأنهم يلغون عقولهم، ويحيلون كثيراً من الأمور في مؤلفاتهم القليلة التي يتطفلون على جمعها إلى أرباب الكشف والفتح.. أو يقولون عن أمر أعجزهم: إن ذلك تعبدي محض لا يعقل له معنى، ولا يمكن أن يكشفه أحد.. إلى غير ذلك من الإحالات على المجهولات، والإياس من النظر وإعمال الفكر، والاقتناع بما كُتب فيه أو حُقِّق». وقد مر معنا أنه بلغ من تمام عنايته بالعقل تشجيعه طلابه على الاستماع للعلماء والاتصال بهم والأخذ عنهم والاستفادة منهم وخاصة أصحاب الاستنباط والاجتهاد على شرط أن يلقوا وراء ظهورهم ما لا يصح من الأفكار بعد مناقشتها[2].

❑ يقول: «إنّ غل الفكر عن النظر والتأمل هو أعظم هادم لصرح التحقيق، فإن الحقيقة بنت البحث، وإن الحق ليس منحصراً في قول ولا مذهب، وقد أنعم اللّه على الأمة بكثرة مجتهديها وليس الغرض من

(١) المصدر السابق (ص٨٣).

(٢) المصدر السابق (ص٨٤).

الإصلاح العلمي بالاجتهاد القيام بمذهب خاص والدعوة له على انفراده، وإنما المراد إنهاض همم رواد العلم لتعرض المسائل بأدلتها، وإننا في الرأي مستقلون ولسنا بمقلدين ولا متحزبين»[١].

❑ ورأى القاسمي بثاقب فكره أن دعوة التجديد ينصرها الشباب وهم أحوج الناس إليها فاهتم بهم وبتربيتهم على الاعتماد على الكتاب والسنة فجزاه اللَّه خير الجزاء من مصلح نصح أمته.

❑ ونختم بما قال الشيخ رشيد رضا عن القاسمي: «إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر»[٢].

ويقول: «إنه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته، وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة بلا زيادة ولا نقصان على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الأول»[٣].

*** القاسمي الناصح لأمته:**

❑ انظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى نصح القاسمي لأمته حين يقول في «محاسن التأويل» عند قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ [الأنفال: ٦٠]:

«دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية اتقاء بأس العدو وهجومه، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام كان الإسلام عزيزًا عظيمًا أبيّ الضيم، قويّ القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار،

(١) «الاستئناس» للقاسمي (ص٤٤)، و«الجرح والتعديل» للقاسمي (ص١٤).
(٢) «المنار» المجلد ١٧، (٨/ ٦٣١).
(٣) «المنار» المجلد ١٧، (٨/ ٦٣٣).
وإن كان عليه مآخذ في رسالته «تاريخ الجهمية والمعتزلة».

وخضّد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابًا متتالية، وهم سادة الأمم وقادة الشعوب، وزمام الحول والطول، وقطب رحى العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوه.

«وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصّته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر للحرب، بل كلها مما يُشترى من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسًا يجب أن تتدبره وتتلافى ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضى والعياذ باللَّه على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار»[1] ا.هـ.

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

*** الشيخ محب الدين الخطيب ونشره للتراث السلفي المتميز في صحيفة الفتح والمطبعة السلفية:**

الشيخ محب الدين الخطيب هو «أبو الجمعيات الإسلامية في مصر» وهو «منشئ جمعية الشباب المسلمين» وهو رائد كبير من الرعيل السلفي أخذ على عاتقه بعد الشيخ رشيد نشر التراث السلفي، وكان لمطبعته السلفية بالمنيل قصب السبق في تعريف أهل مصر بالكتاب السلفي، ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن عبدالوهاب والدهلوي وهذه الكتب نشرت السلفية

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٨/ ٣٠٢٥).

في ربوع القطر المصري.

❑ وتولى أيضًا إصدار الكتب المدافعة عن عقيدة السلف وأئمة السلف ككتاب «ظلمات أبي رية» للشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وكتب ذهبي العصر عبدالرحمن المعلمي اليماني «التنكيل» و«الأنوار الكاشفة». كما نشر وقام على ترجمة مقالات المستشرقين وشياطين التبشير في صحيفة الفتح ١٣٤٩ ـ ١٣٥٠هـ، ثم في كتاب مستقل، ولو لم يكن للشيخ محب الدين الخطيب تلميذ الشيخ طاهر الجزائري إلا نشره لمقالات «الغارة على العالم الإسلامي» لكفاه فخرًا.

❑ قال الشيخ محب الدين الخطيب: «في يوم من أيام سنة ١٣٣٠هـ، وكنت أشتغل في تحرير المؤيد، أقبل عليّ زميلي السيد مساعد اليافي، وقال: «شيء جديد لم أكن أتوقعه. قلت: وما هو؟ قال: إن مجلة «العالم الإسلامي» التي كانت إلى الآن مجلة اجتماعية أدبية، تحوّلت في هذا الشهر إلى مجلة تبشيرية، انظر، إنها أصدرت عددًا ضخمًا ليس فيه غير بحث واحد وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانية في العالم الإسلامي، وما قيل في المؤتمرات التي عقدتها تلك الإرساليات في أوقات مختلفة.

وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث (الغارة على العالم الإسلامي) أو (فتح العالم الإسلامي).

قلت له: إن المجلة الفرنسية بنشرها هذا العدد الخاص بأعمال المبشرين البروتستانت تقول للمبشرين الكاثوليك: انظروا كيف سبقكم الآخرون إلى الغارة والفتح، فيجب أن تضاعفوا جهودكم وتنظروا في أساليبهم فتستفيدوا منها، ونحن أيها الأخ ـ بصفتنا مسلمين ـ يجب علينا أن نعلم ما يكيده لنا هؤلاء وأولئك، وأن نجعل أمتنا على علم بما يُنصب لها من شراك وما يُبيّت

لها من شرٍ. فأقترح عليك أن تترجم فصول هذا البحث فصلاً بعد فصل وتنشره في المؤيد تباعًا فيقف المسلمون على ما يُكاد لهم به من هذه الناحية. فقال لي صديقي السيد مساعد: ولكن البحث طويل. والوقت الذي نعمل فيه هنا مشغول بالواجبات الأخرى.

❑ قلت: نتعاون أنا وأنت على هذا الخير، ولا نعدّ هذا من واجباتنا في قلم التحرير، بل من واجباتنا نحو الإسلام والشرق، وأرى أننا عندما نفرغ كل يوم من عملنا اليومي تُملي عليّ ترجمة فصل من الفصول بأي الألفاظ شئت وأنا أصوغ ما تمليه على بعبارة عربية فنتمكن من أداء هذا العمل بنصف الوقت اللازم له. قال: حسن!

وما كادت هذه المقالات المتسلسلة تنتشر في مصر والعالم الإسلامي حتى كان لها وقع عظيم جدًّا، وبعثت اليقظة في كثير من الناس، ونقلتها عن المؤيد مجلات وصحف متعددة ـ منها مجلة المنار في القاهرة، وجريدة الإخاء العثماني في بيروت ـ وضاق صدر كتّاب مجلة العالم الإسلامي نفسها وأمثالهم من أنصار التبشير والاستعمار من ذيوع هذه الفصول بين المسلمين؛ لأنهم يودون أن يقوم بأعماله والمسلمون نيام، فدارت مناقشة بينهم وبين «المؤيد حول هذا الموضوع تولى كاتب هذه السطور الإجابة عليها»[1].

ثم نشرها الشيخ محب الدين الخطيب ـ بعد نشرها في «المؤيد» ـ في الفتح، ثم طبعها في كتاب مستقل.

❑ لما صدرت هذه المقالات كتب شكيب أرسلان[2] الأديب الكبير:

«إنني أقترح طبع هذه المقالات المترجمة في «الفتح» عن أعمال المبشرين

(١) مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» لشاتيليه (ص٣، ٤).

(٢) زعيم الدروز وقيل إنه عاد في أخريات حياته إلى مذهب أهل السنة.

كتابًا على حدة يطبع منه ألوف من النسخ وعشرات ألوف ويوزع على جميع العالم الإسلامي بدون استثناء ويقتنيه كل مسلم ذي حميّة ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع، ولا يبرح بين أيدي المسلمين حتى يستظهروه غيبًا لعلهم ينهضون أخيرًا لقابلة الشيء بمثله ويؤلفون الجمعيات ويتبرعون لها بالأموال ولو بعشر معشار ما يتبرع به الإفرنج لجمعياتهم التبشيرية التي لا نحتاج إلى ذكر مآربها الخبيثة بما شرحته لنا تقاريرها، وما فضحته من أسرار أعمالها، وما أوضحته من الطرق التي هي سائرة عليها لهدم الإسلام من كل أقطار الأرض. ويجب أن يترجم هذا الكتاب إلى التركي والفارسي ولسان الأرد ولسان الملايو وجميع ألسنة الشعوب الإسلامية.

❑ وإننا لنشكر زويمر وأقرانه وجميع هؤلاء المبشرين على هذه التقارير التي لم تُبق عند أحد شبهة في حقيقة مقاصد هذه الجمعيات وهذه البعثات التبشيرية على اختلاف نحلها، كما أنها لم تُبق عند أحد شبهة في عضد الحكومات الأوربية لهذه الجمعيات التبشيرية وهذه البعثات التي تبثها في العالم الإسلامي تارة خفية وتارة علنًا، فإنه ما من سبيل للدفاع عن النفس أحسن من معرفة العدو ما يكيد له عدوه[1].

❑ وعن دوره في مقاومة «التغريب» ودوره في حركة اليقظة الإسلامية يقول الشيخ محب الدين الخطيب:

«لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدّون العدة للاستيلاء على الرأي العام، وتحويل وجهه عن «المكتين»[2]، وما أنزل اللَّه فيهما، إلي المعاهد القائمة على ضفاف (التايمز) و(السين) وما يصدر عنهما، وواتاهم الحظ بما أحدثته

(١) خاتمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» (ص١١٩) ـ المطبعة السلفية.
(٢) مكة المكرمة والمدينة المنور.

أنقرة[1] من أحداث وما جنحت إليه من هوى، فتذرعوا بالثناء على جهادها الوطني للدعوة إلى مثل نتائجه في الدين والدولة، وتعميم تلك النتائج في المشرقين والمغربين، ولم يكن للإسلام في مصر صحف غير مجلة (المنار)، ولا جمعيات غير جمعية «مكارم الأخلاق» ومجلتها، أما النزعات الأخرى العاملة على تعميم الدعوة الأنقروية وتقليدها، فكان في أيدي رجالها أكثر الصحف، وكانوا مشرفين على معظم المرافق والجمعيات، وكان أنصارهم منبثين في وزارة المعارف ومعاهدها، ونظام الاحتلال يؤيدهم في إبعاد الشباب عن الإسلام وحيويته جهد الطاقة.

❑ وكان أحمد تيمور باشا هو الوجيه المصري الأول الذي شعر بالخطر الأعظم عى مصر والوطن العربي والعالم الإسلامي، وأشفق من أن يتم فيه ـ ولو بالتدريج ـ ما تمّ في تركية، وكان ـ رحمه الله ـ لا ينقطع عن زيارة دار المطبعة السلفية من سنة ١٣٤٢ إلى سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م ـ ١٩٢٥م) في شارع «خيرت» فانعقدت فيها اجتماعات حضرها: أحمد تيمور باشا، وأبوبكر يحيى باشا، وعبدالرحمن قراعة، والسيد محمد الخضر حسين، وعلي جلال الحسيني، ونحو عشرة آخرين مَن هذه الطبقة، وتذاكروا موجة الإلحاد القوية التي طغت على العالم الإسلامي، وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره ليس في يده، والذين أمره في يدهم من المسلمين فهموا من الإسلام ألفاظ أوراده وحركات مسابحه، وغفلوا عن أهداف جهاده وحركات حيويته!!

وانتهت تلك الاجتماعات بتقرير تأليف جمعية لمقاومة الإلحاد، والتعاون على ذلك مع كل من يؤلمه أمره في الوطن الإسلامي أكبر، واختير لسكرتارية الجمعية أحد أصحاب الفضيلة المدرسين بالأزهر، وبذل نشاطًا مذكورًا للاتصال بجميع أصحاب الغيْرة الإسلامية من العلماء والوجهاء في

(١) أي: إلغاء الخلافة الإسلامية.

جميع أنحاء العالم الإسلامي.

❑ وبعد أشهر من هذه المحاولة تبيّن لنا أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية، وأنه لا بد من الاتصال بالرأي العام والشباب المثقف على الخصوص، وأن الصحافة هي الوسيلة الأولى لذلك، وكنت أصدر في ذلك الحين مجلة (الزهراء) غير أنها شهرية وأدبية لا تصلح مطية لهذه المعركة؛ فضلاً عن أنه مشروط في امتيازها ألا تتعرّض للسياسة أو الدين، وكان الحصول يومئذ على امتياز بصحيفة إسلامية للغرض الذي نريده أشبه بالمستحيل.

❑ غير أن أحمد تيمور باشا ـ رحمه اللَّه ـ التمس لذلك الأسباب التي لا يقدر عليها غيره، وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار (الفتح) عام (١٣٤٤هـ) (١٩٢٦م). ومرّ على هذه التجربة عام تبيّن لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الأداة الضعيفة، والأمة أعظم وأكرم على نفسها من أن تصغى إلى هذا الصوت الخافت، وحينئذ فكرنا في تأسيس جمعية (الشبان المسلمين) وكان تأسيسها في غرفة متواضعة من دار المطبعة السلفية ومكتبتها بشارع الاستئناف، وقد استعنا على النجاح في تأسيسها باثنى عشر شابًا منهم الأساتذة: محمد شاكر، عبدالمنعم خلاف، عبدالسلام هارون، محمد الخضيري، كمال اللبان، عبدالفتاح كرشاه، فانتشروا في الكليات والمدارس والوزارات والأندية، وفي كل مكان، وبعد أن صار للجمعية ثلاثمئة عضو يليقون بها وتليق بهم، أخبرنا الدكتور عبدالحميد سعيد والشيخ عبدالعزيز جاويش وأمثالهما ودعوناهم للانضمام للجمعية، وبعد ذلك أعلن عن تأسيس الجمعية في غرة جمادى الآخرة ١٣٤٥هـ (نوفمبر ١٩٢٧)[1].

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي (٣٣٦ ـ ٣٣٨) ـ دار القلم ـ دمشق.

* الداعية الإمام الشيخ حسن البنا . . العبقري المصلح الفذّ:

أشهر في الدنيا من الدنيا . . . مصلح استطاع أن يوقظ جذوة الفكرة الإسلامية في صدور الآلاف من الشباب، ويرد غربة الإسلام بين الجاهلين به إلى معرفة وأنس، وعرّف الناس في زمن الغربة بشمولية الإسلام وصلاحيه للدنيا والآخرة فالإسلام مصحف وسيف، وبذل في سبيل ذلك من علمه وجهاده ووقته ونفسه وأعطابه وراحته ما لا يستطيعه إلا العصبة المجتمعة من أقوياء الرجال.

❑ قال عنه الشيخ محب الدين الخطيب: «يحمل قلبًا ولا كالقلوب، إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده، وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن فلم أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ، وكنت (ابن صنعة) يوم اكتشفتُ بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي، الصابر والمثابر، الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية»[1].

❑ ثم يقول الشيخ محب الدين:

«كانت هذه النواة (الإخوان المسلمين) تبشر بأنها هي الأمل الذي كان يرجوه شيوخ الملة: أحمد تيمور، وأبو بكر يحيى، وعبدالرحمن قراعة وأضرابهم؛ يوم اجتمعوا في دار المطبعة السلفية بشارع (خيرت) يقلّبون وجوه الرأي في السلاح الذي يقاتلون به موجة الإلحاد، والتي تحولت بأحداث أنقرة من موجة ماء يهدد بالغرق إلى موجة بترول وبنزين تهدد بالنار تلتهم الأخضر واليابس.

وأذكر أننا كنا نعجب كيف يكون للمعاني التافهة في السياسة المحلية أحزاب يهبُّ لها الشباب قلوبهم وحماستهم في ذلك الحين، ولا يكون

(١) المصدر السابق (٣٣٨ ـ ٣٣٩).

للإسلام ـ وهو المعنى الأشمل لكل سياسة سامية ـ حزب يواليه ويؤيده ويغضب له ويرضى لأجله. وكثيراً ما أفكر في هذا الجيش اللجب من الإخوان المسلمين وما لهم من مئات الشُّعب، وكيف استطاع رجل واحد أن يحقق ذلك بعد أن كان أملاً بعيداً لكل غيور على الإسلام، فأعود وأقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤][1].

ذلك انطباع محب الدين عن البنا وقد لقيه في أول الطريق، يضع البنا حيث مكانه الحق من حركة اليقظة في العقد الثاني من القرن العشرين.. فكيف لو امتدت به السنون؟

*** صدع الأستاذ البنا بالحق والجهر بكلمته عند كل سلطان جائر:**

من يُطالع آثار الأستاذ حسن البنا وكتاباته يجده قائمًا بالحق، لا يتوقف عن أن يقول كلمته لكل حاكم، وأن يرد غيبة الإسلام في كل موقف.

يقول ـ رحمه اللَّه ـ للحكّام:

«أيها الجالسون على كراسي الحكم: أما آن لكم أن تفقهوا بعدُ أن من استعز بغير اللَّه ذل، وأنَّ الناس من خوف الذل في الذل، ومن خوف الفقر في الفقر، وأنَّ من حرص على الموت وهب اللَّه له الحياة. فإذا أردتم القوّة الصحيحة فالتمسوها في طاعة اللَّه وأداء فرائضه ومناصرة أحكامه، وتأييد المجاهدين في سبيل حماية أرض الإسلام ومقدسات الإسلام، ولا تتخذوا من دون اللَّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة. اصدقوا اللَّه ساعة من نهار، وجربوا هذا الطريق، وثقوا أنكم الرابحون ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]»[2].

---

(١) «المصدر السابق (٣٣٩ ـ ٣٤٠).

(٢) «حسن البنا» (ص٤٠٢).

*** رده على مصطفى النحّاس زعيم الوفد في إعجابه بمصطفى كمال أتاتورك:**

أرسل الأستاذ حسن البنا ـ رحمه اللَّه ـ إلى مصطفى النحاس زعيم الوفد، أكبر حزب في مصر يناقشه فيما جاء في تصريح له حين قال: أنا معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك، ليس فقط بناحيته العسكرية، ولكن بعبقريته الخالصة وفهمه لمعنى الدولة الحديثة.

❑ يقول: هذا التصريح ليس تصريحًا أجوف، وليس تصريحًا يصدر هكذا عن مجاملة أو غير روية سابقة، وفكرة مستقرة تريد أن تبرز إلى الوجود في الوقت المناسب حين تتهيأ لها الظروف؛ وإن سبق اللسان فأظهر مكنون الضمير.

فأنتم تسجلون في هذا التصريح أن هناك شيئًا اسمه الدولة الحديثة، وهي التي فهمها كمال أتاتورك، وشكل علي غرارها تركية، وتصرحون في كلامكم كذلك أن هذه الدولة هي التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية أن تعيش وتنمو.

ومعلوم أن أتاتورك في دولته الحديثة قد تجرد من كل المظاهر الإسلامية، فكأنكم في هذا تعلنون في صراحة أن مصر لا تستطيع أن تعيش وأن تنموا في الأحوال العالمية الحاضرة إلا إذا تجردت هي الأخرى من كل مظاهر الإسلام كما فعلت تركية.

وكأن هذا هو عنوان منهاجكم ومحور الإصلاح الذي تريدونه لهذا الوطن بعد الانتهاء من قضاياه الخارجية، ولست رجلاً من آحاد الناس، بل أنتم زعيم يؤول إليه الحكم، وتلقى إليه مقاليد الأمة، واسمح لي أن أنبه إلى نقطة قد تكون خافية؛ وهي أن كمال أتاتورك جاهد بالسيف في تحرير بلاده، وطرد منها الأجانب، وبث فيها روح العزة والكرامة، ووفر بها بعض الراحة في الاقتصاد والماديات، وهذا جميل لا غبار عليه، وقد وصل إليه أتاتورك

وهو مسلم يحمل السبحة ويتلو القرآن في المصحف، ويسجد للَّه على رمال الصحراء بين أعراب الأناضول ومسلميه، حتى إذا مكن اللَّه في الأرض نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وقد كان يتيسر له كل ما أراد من إصلاح بل وأضعافه لو ظلَّ متمسكًا بدينه وإسلامه، فلم يكن الإسلام حائلاً يومًا ما عن الوصول إلى المجد، والإلحاد والرقص والقبعة، وغير ذلك من المظاهر الفارغة الخادعة التي لا تقدم ولا تؤخر.

هذا التصريح دليل مادي بين يدي الذين يرون أن (الوفد) يعمل على سياسة إن لم تكن تناوئ الإسلام فهي على الأقل لا تستمد منه ولا تعني بشأنه، ويسرها أن تتخلص من تباعته»[1].

❑ وانظر إلى جرأة الأستاذ البنا وأدبه في الكشف عن زيف الاتجاه السياسي الذي كانت تعيش عليه الحزبية السياسية في البلاد العربية.

* مواجهة البنا للحكّام في شأن الشريعة الإسلامية:

رحم اللَّه البنا فقد أوقف عمره كله على خدمة قضايا الإسلام والدفاع عن الشريعة الإسلامية.. انظر إليه وهو يقول للحكام:

«يا زعماء مصر وقادتها وأولي الرأي فيها! ما أعظم تبعتكم بين يدي اللَّه وبين يدي الأجيال القادمة؛ إن ظلت الحالة على ما هي عليه الآن، إنكم ضيعتم بتفرقكم واشتغالكم بخصوماتكم هذه الفرص المواتية لهذا الشعب الذي ائتمنكم على مقدراته، فلم تحفظوا فيه حق أمانته.

طهروا أنفسكم من هذه الأدران، واطرحوا هذا الكبرياء الكاذب الذي يزينه لكم شيطان النفوس الجامحة، وفكروا في مصر، واعملوا لمصر، فإن فعلتم ذلك فهو حظكم في الدنيا ونجاتكم في الآخرة، وإن لم تفعلوا ـ ولا

(١) «حسن البنا» (ص٤٠٢ ـ ٤٠٣).

أقول الثانية ـ فسيحيق بكم سوء تفريطكم، وسنحاسبكم أشد الحساب على أعمالكم، وسيدمغ تاريخكم بأبشع تهمة لوث بها تاريخ إنسان، وسنسير في طريقنا، وسنحاول أن نعمل لهذا الشعب، ونسلك به مسالك الجهاد الصحيح في سبيل استكمال حريته واستعادة مجده؛ رضيتم بذلك أو وقفتم في سبيله، ولن يدفع أمر اللَّه دافع، ولكنا نريد أن تكونوا معنا، فنختصر الطريق فهل أنتم فاعلون؟

ويواجه المسئولين في صراحة فيقول:

إن الذين وضعوا الدستور المصري قالوا في المادة التاسعة والأربعين بعد المئة منه: «إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام».

فالأمر لا يعدو أحد اثنين: إما أن يكونوا جادِّين في هذا الذي سجلوه على أنفسهم وعلى الدستور المصري، فيجب أن يكون محل احترام منهم، وأن يعملوا جاهدين حتى تحل النظم الإسلامية محل كلِّ نظام غير إسلامي في كل شيء: في الحكم، والقانون، والعادات، والمعاملات، كل مظاهر الحياة، وحينئذ يكون بحق دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ويكون الدستور المصري محترمًا مصونًا، قد احترمه واضعوه، ونزلوا على حكمه.

وإما أن يكونوا لا يقصدون ما يقولون، ولا يؤمنون بما يكتبون، وهم بذلك يعبثون ويلهون، ويغشون الشعب ويخدعونه بمثل هذا النص الذي لا تحقق له في الخارج، وحينئذ يجب علينا معشر الدعاة أن نقوم إليهم وإلي هذا الشعب المخدوع بالنصيحة، فإن فعلوها فبها ونعمت، وإلا فنحن دائبون في جهادنا، عاملون على تحقيق هذه الغاية مهما كلفتنا، جادون في إيقاظ الفكرة الإسلامية القائمة في نفس المسلم الطيب القلب، حتى يعرف حقه، ويحرص على دينه ويملي إرادته على حكامه، فينزلون عليها، ولا يجدون مناصًا من تحقيقها، فيكون الدين الرسمي بذلك للدولة هو الإسلام.

فأي الموقفين يريد حماة الدستور واضعوه أن يضعوا أنفسهم أمام الأمة؟

ذلك موقفنا من القرآن والدستور، وسيظل دائمًا في المستقبل حتى تتحق الغاية؛ فتتفق تعاليم الدستور مع تعاليم القرآن، وتكون تعاليم القرآن هي لب الدستور ومحوره، والحكم بيننا وبين الفقهاء، ليستمدوا الدستور من كتاب اللَّه على أوسع حدوده ومدلولاته، وإنا لندعوهم إلى خطة سواء فهل يقبلون؟!»[1].

*** تمنيّه للموتة الطاهرة.. الشهادة في سبيل اللَّه وكلامه على «صناعة الموت» ودور أبنائه في الجهاد في سبيل اللَّه:**

كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول دائمًا: «أرجو أن يتمّ اللَّه عليّ نعمته، فألقى اللَّه وأنا على هذه الطهارة، وأن يرزقني اللَّه أيضًا الموتة الطاهرة.. وهذه الموتة الطاهرة هي الشهادة».

ولقد سجل هذا المعنى في مقال ذائع له تحت عنوان: (صناعة الموت):

«الموت صناعة من الصناعات؛ من الناس من يحسنها فيعرف كيف يموت الموتة الكريمة، وكيف يختار لموتته الميدان الشريف والموقف المناسب، فيبيع القطرة من دمه بأغلى أثمانها، ويربح بها ربحًا أعظم من كل ما يتصور الناس، فيربح سعادة الحياة وثواب الآخرة، ولم ينقص من عمره ذرة، ولم يفقد من حياته يومًا واحدًا، ولم يستعجل بذلك أجلاً قد حدده اللَّه.

انجلى الصدأ عن المعدن النفيس، وبرزت النفس في ثوبها الحقيقي اللامع المجاهد، وتكشف الصدف عن لؤلؤه، وتمحص الذهب الخالص تحت نار الضغط الأليم، وذهب فريق من أبطال المسلمين يحسنون من جديد صناعة الموت، ويطلبون عن طريقها حقهم في الحياة، وسرى هذا التيار في

(١) «حسن البنا» (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).

نفس الفئة المجاهدة القليلة في جوار الحرم المقدس إلى كثيرٍ من شباب الإسلام.

إن فلسطين هي خط الدفاع الأول، والضربة الأولى نصف المعركة فالمجاهدون إنما يدافعون عن مستقبل بلادكم وأنفسكم وذراريكم؛ كما يدافعون عن أنفسهم وبلادهم وذراريهم، وليست قضية فلسطين قضية قطر شرقي ولا قضية الأمة العربية وحدها، ولكنها قضية الإسلام وأهل الإسلام جميعًا، ولا محل للتدليل على حقوق العرب فيها».

وقد صدق حسن البنا ربه، فكانت فلسطين هي المسرح الأول لجهاده، ومنها تجلت الصورة الباهرة التي كشفت عن نجاح تجربته، فقد قدم أبناؤه ورجاله أرواحهم خالصة طاهرة؛ على نحو أذهل القوى الغربية الاستعمارية التي أحست بمدى الخطر الذي سيحدث لو نجح هذا الإتجاه وهذا التيار، ومن ثمَّ قدم حسن البنا حياته وروحه مؤمنًا بصناعة الموت وعلى النحو الذي رسمه وفهمه، فمات هذه الموتة الكريمة، بعد أن كشف للدنيا كلها أن كلمة الجهاد لم تمت في المسلمين، وإنما هي قادرة على الحياة والعمل، وأنها حين استجاشت بها النفس المؤمنة عادت من جديد لتثبت أن الإسلام قادر على بناء الأمم من جديد.

*** دفاعه عن الإسلام والكشف عن باطل وزيف أتباع الغرب وتقديمهم للناس في صورتهم الصحيحة دون خداع أو إيهام: «البنا وطه حسين»:**

ومن ذلك موقفه من الدكتور طه حسين حين أعلن في حفل أقامه له أتباعه من طلاب كلية الآداب بأنه نصير الإسلام، وقال: إنني أتمنى أن يقيض اللَّه للإسلام من يدافع عنه كما أدافع عنه، وأن ينشره ويحببه للناس كما أنشره أنا وكما أحبب مبادئه للناس. فكتب له الأستاذ البنَّا قائلاً:

«إذا صح ذلك يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق، واعتبرنا أيها الداعية

المسلم من جندك منذ الساعة، فإنا للإسلام نعيش، وله نحيا، وفي سبيل الدعوة إليه نموت شهداء.

صدقني يا دكتور طه من غير أن أقسم لك، وإن شئت فأنا أقسم على هذا؛ إنني لأتمنى من كل قلبي مخلصًا أن أرى ذلك اليوم الذي تدعو فيه أنت للإسلام وتنشره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم.

فإنك رجل جريء لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون وأصدقاء مخلصون، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب، وما نحسدك على هذا ولكنا نتمنى أن يكون ذلك في ميزان الإسلام لا عليه وفي كفة الخصومة له وتوهين أمره بطريق غير مباشر، فهل يجيء حقًّا ذلك اليوم؟! أسألك يا دكتور مخلصًا لأطمئن، لا متحديًّا لأتعنت.

إنَّ لك تلامذة قد اختصصت بهم واختصوا بك، فأيهم ظهر أثر دعوتك فيه؛ فكان لسانًا إسلاميًّا، أو قلمًا إسلاميًّا، أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية، أو مظهرًا من مظاهر التمسك بالإسلام؟!

وإنك قد ساهمت في خدمة كثير من القضايا الاجتماعية، وحضرت كثيرًا من الأحفال والمؤتمرات في داخل القطر وخارجه؛ ففي أيٍّ من هذه جميعًا نطقت باسم الإسلام أو دعوت إلى تعاليمه؟!

وأنت يا دكتور أستاذ في الجامعة المصرية منذ أنشئت، فأنشدك الحق: هل تذكر أنك عرضت في دروسك ومحاضراتك لطلبتك بما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ومتانة تشريعه؛ هذا والمادة التي اختصصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام وكتاب الإسلام؟!

ولا أحرجك فأقول ـ وأنشدك الحق يا دكتور ـ: أفتحيا أنت في حياتك اليومية نمط إسلامي، وتطبع أسرتك كرب بيت بهذا الطابع، ودع البيت وما فيه، أفتقوم أنت في حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم؛ فضلاً عن

الداعية الذي يتمنى أن يقيض اللَّه للإسلام من يدافع عنه مثله؟!

ولا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه؛ فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة، كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولهما جميعًا، وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط؟!

وبعد يا دكتور طه: فهل من الدعوة للإسلام أن تعرض للنظر في القرآن بالأسلوب الذي اخترته لنفسك من قبل ـ ولعلك عَدَلت عنه من بعد، وهو ما أسرُّ له ـ حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمي بحت!!

وهل من الدعوة للإسلام أن تقف وقفتك المعروفة في شأن الكتابين الإنكليزيين، وما كان عليك ولا على الجامعة ولا من حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلاميذك رأوا في هذا الكلام طعنًا في مقدساتهم، فلجئوا إليك بالطريق القانوني في هدوء وأدب؛ أوَمَا كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسرَّ لها ويعطف كل العطف على القائمين بها؟!

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تنادي في صراحة لا تعدلها صراحة: أنه لا سبيل لنا إلى الرقي إلا إذا قلّدنا أوروبة، وسلكنا مسلك الأوروبيين، لنكون لهم شركاء في حضارتهم خيرها وشرها، حلوها ومرها، نافعها وضارها، ما يحب منها وما يكره، وما يمدحه منها وما يعاب، ومن زعم لك ذلك فهو خادع أو مخدوع!!.

ولعلك تقول كما قلت: إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام، وهذا حسن جميل، ولكن أفترى أن الإسلام لم يسلك بالمسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوروبة من ظلمات جهلها بمئات السنين؟ فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوروبة الناشئة المتخبطة،

ولا تدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان؟!.

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تخلط يا دكتور بين الفتيان والفتيات هذا الخلط في كلية الآداب، فتحذو حذوها غيرُها من الكليات، وتبوء أنت بإثم ذلك كله؟!.

وتزين للفتيات في صراحة هذا الاختلاط، وتحثهن عليه، وتدعوهن إليه! ولا تقل إن هذا من عمل غيرك، فيداك أوكتا وفوك نفخ، وما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه واستخدم نفوذه في تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت!!.

ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك، ولكني أخالفك يا دكتور، وأصارحك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام، وقد رأينا وسنرى ما سيكون له من آثار!!.

هذه صحيفتك يا دكتور طه في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، فهل لا تزال بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذي لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان، مصرًّا على أن يقيِّض اللَّه للإسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه، ومن ينشره ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل؟!.

على أننا على استعداد لأن ننسى الماضي جميعه، ونأخذ في جديد مثمر منتج على الأساس الذي وضعته أنت وارتضيناه نحن: أن تثبِّت في نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام، وأن تدافع عنه، وأن تنشر تعاليمه، وأن تحببه للناس. وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كتاب اللَّه كما تفسره اللغة العربية الواضحة، وسنة رسول اللَّه ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهمها السلف الصالحون ـ رضوان اللَّه عليهم.

فهل يضع الدكتور طه يده في يدنا على هذا الأساس، ثم نعاهد اللَّه جميعًا على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين في سبيله؟!.

وكلمة أخيرة يا دكتور: لقد قلت ـ وهو قول الحق ـ: إن حياتنا موقوتة، وكل ما فيها موقوت، وإن اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التي منحها لنا، وهي الحياة في أي لحظة، وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة.

ما أجمل هذا الإيمان!! أذكرك بهذه الكلمات، وأذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت سن الآمال الخلّب، وصرت إلى الآخرة أقرب، وأسأل اللَّه أن يطيل حياتك خادمًا مخلصًا للإسلام، وإن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحدة كثيرًا من السيئات.

وإن اللَّه تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم؛ فلا عليك يا دكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح، وتتجرد للإسلام ولخدمة الإسلام ولنشر الإسلام ولتحبيب تعاليمه بحق إلى الناس، فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

ذلك ما نرجوه منك ولك، وقلوب الناس بيد اللَّه، يصرفها كيف يشاء، فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

ذلك هو موقف حسن البنا في مواجهة أهل الفكر: حكمة عالية، وسماحة خلق، مع بيان كل شيء حتى لا ينخدع الناس بكلام مزيف براق»[1].

*** موقف الشيخ حسن البنا من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين:**

كان للأستاذ حسن البنا موقف من طه حسين أساسًا، وموقف منه بعد

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي (ص٣٩٧ ـ ٤٠١).

صدور كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» وقد أحدث هذا الكتاب دويًا شديدًا[١]، وناقش مجلس النواب استجوابًا خاصًا بهذا الكتاب، وكان أخطر ما دعا إليه طه حسين قوله: «أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادًا».

وقوله: «إن السياسة شيء والدين شيء آخر»، وقوله: «إن العقل الشرقي يوناني الأصل، وأن الإسلام لم يغيّر في العرب شيئًا»، وعقدت محاضرة في جمعية الشبان المسلمين تكلم فيه البنا وبين زيف مقالات طه حسين، وكشف زيفها، وخاصة عبارته الخاصة: «إن علينا أن نقبل الحضارة الغربية: حلوها ومرّها، وما يُحمد منها وما يُعاب»، وقال البنا بعد أن حضر جلسة البرلمان:

«تردد في القاعة ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة تصريحًا أو تلميحًا من أنَّ الدين شيء والسياسة شيء آخر.

ومن أنَّ الدين شيء والقومية شيء غيره.

ومن أن الدين شيء والعلم شيءٌ سواه.

وأنَّ وحدة الدين واللغة لا تصلحان أساسًا لتكوين الدول.

وإن هذا التفريق بين الدين وبين السياسة والقومية والعلم أصلٌ من أصول الحياة الحديثة التي نقلناها عن أوروبة.

فأما أنَّ هذا التفريق والفصل أصل من أصول الحياة الحديثة في أوروبة فأمرٌ لا نخالف الدكتور طه ولا غير الدكتور طه فيه.

ولا ندّعي غيره؛ بل نستطيع أن نقول إنَّ أوروبة استفادت من هذا التفريق والفصل أجزل الفوائد، ولعلها ما كانت تستطيع النهوض بغير هذا.

---

(١) وجاء اليوم من يبعث هذا الكتاب من جديد، ويقدّم له الدكتور محمد فتحي سرور!!.

وأما أننا نقلنا بعض هذه الأفكار من أوروبة، وتأثَّرنا بها إلى حدٍّ كبير أو صغير، وجرت عليها سياستنا العملية في كثير من مظاهر حياتنا؛ فأمرٌ لا نخالف فيه كذلك، وسببه واضحٌ بيِّن: هو أننا أسلمنا قيادَنا أو أسلمتنا الحوادث بعبارةٍ أدقّ إلى ساسةٍ أوروبيين ومعلمين أوروبيين ومشرّعين أوروبيين، فصاغونا كما يريدون وكما يعلمون، واصطبغت سياستنا العملية في معظم شئوننا بهذه الصبغة الأوروبية.

فنحن لا نخالف الدكتور طه ولا غيره في أن حياتنا العملية في كثيرٍ من مظاهرها العامة والخاصة قد انحرفت إلى معنًى أوروبيٍّ بفعل الحوادث المتعاقبة طوال هذه السنين الطويلة.

وهذا الانحراف نفسُه الذي يتخذه الدكتور ومن نحا نحوَه حجةً على وجوب رضانا بأوروبة والاندفاع في تقليدها فيما بقي لنا من مظاهر الحياة، هو نفسه الذي يدفعنا نحن إلى تحذير الأمة من التقليد، وإلى وجوب رجوعها إلى تعاليم الإسلام، وعرض هذه الحضارة الأوروبية عليها؛ فما وافقها قبلناه وما خالفها رفضناه، ونحن لم نجنِ بعدُ من هذا التقليد الخاطئ إلا المصائب والعقم واضطراب الحياة في كل ناحيةٍ من نواحيها.

ولكن الذي نخالف فيه الدكتور طه وغيره ممن يؤمن بفكرته هذه؛ ادّعاءُ أن هذا التفريق بين العلم والسياسة، وبين الدين والقومية[1]، وبين الدين والعلم نافعٌ لنا، متفقٌ مع تعاليم ديننا.

هذه دعوى ينقضها الدليل النظري والدليل التاريخي، وتتنافى تمامًا مع مصلحتنا ومع مقوِّمات نهضتنا.

والذي يريد أن يجرِّد الإسلام عن معناه السياسي وعن معناه القومي وعن معناه الثقافي يريد بمعنى آخر ألاَّ يكون هناك شيءٌ اسمه (الإسلام)

(١) هذا المصطلح أتى به الاستعمار إلى بلادنا الإسلامية ليفرق بين المسلمين.

تؤمن به هذه الأمة، وهو عند نفسه وعند الناس يخدع هذه الأمة ويخاتلها، ويعدل بها عن الإسلام الحق إلى إسلامٍ من عند نفسه، لا يتّصل إلى الإسلام الصحيح بسبب، وإنما هو في الحقيقة مسيحيةٌ سمّاها هو الإسلام.

إنَّ أوروبة حينما فصلت بين الدين والسياسة وبين الدين والقومية وبين الدين والعلم؛ كانت مدفوعةً إلى ذلك بعوامل قهرية ضرورية.

فالدين الذي كان يسودها وتؤمن به شعوبها خالٍ تمامًا من التشريعات العملية والمعاني السياسية، وهو وصايا روحية محدودة في الكتب المقدسة، وطقوس كهنوتية بين جدران الهياكل والمعابد. والرجال الذين كانوا يمثّلون هذا الدين كانوا شجًا في حلق الدولة والعلماء بما لهم من سلطانٍ مطلق أكسبتهم إياه هذه التعاليم.

وتاريخ أوروبة القديم والوسيط سلسة نزاع بين الأمراء والباباوات من جهة وبين العلماء والكنيسة من جهةٍ أخرى، بل تعدَّى الأمرُ في هذا النضال إلى الشعوب نفسها، فكان النضال كثيرًا ما يكون بين الشعب بأسره وبين الكنيسة.

هذه الأمور الثلاثة: طبيعة الدين الأوروبي، وهيمنة رجاله على الدولة والعلم، والنضال الطويل بين نواحي الجهات الأوروبية المختلفة؛ كلُّ ذلك دعا أوروبة إلى أن تفصل بين الدين والسياسة، وبين الدين والقومية، وبين الدين والعلم. فهل هذه المعاني تنطبق على الإسلام؟

أحبُّ أن يفكر السادة الباحثون في الجواب على السؤال بإنصاف، وهم سيقولون بعد ذلك بملء الفم: لا ثم لا.

إنَّ طبيعة الإسلام ليست طبيعةً روحية بحتة، فهو دينٌ روحي وعملي معًا، وهو لم يحصر نفسه في حدود المساجد والمعابد، ولم يحفل بالطقوس والمظاهر، وإنَّ الدين الذي يقول لبنيه: (ابنوا مساجدكم جمًا) أي غير مزيّنة

ولا مزخرفة ولا مبالَغ في بنائها ورفعها (وابنوا مدائنكم مشرفة) أي محصّنة مسوّرة، مجهّزة بأدوات الدفاع وما إليها، إن الدين الذي يجعل هذا من شعاره لعظيمُ العناية بشئون الدنيا ومصالح الناس، كما يعنى تمامًا بصلاح الروح والآخرة.

* وشعار الإسلام: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

الدولة والعلم من أعظم أركان الإسلام وأثبت قواعده وشعائره؛ فأين هذا من بُعد الدين الأوروبي عن مظاهر الحياة العامة، وإن رجال الإسلام في كل عصرٍ من عصوره إلى الآن لم يدّعوا لأنفسهم سلطةً أكبر مما يؤهِّلهم لها علمهم بهذا الدين وصلتهم به، ولم ينازعوا الأمر أهله بعضًا من الأيام، ولم يُعرَف عنهم إلا إنكار المنكر حين يشيع وتشجيع المعروف حين يظهر والوقوف عند حدود اللَّه.

* وإذا كان شعار الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢]، فأين هذا من سلطان الإكليروس في أوروبة وما ادّعوه لأنفسهم من سلطانٍ على قلوب الناس وإيمان الناس وحياة الناس الدنيوية والأخروية!!

وتبعًا لهذا كان تاريخ الإسلام مع الدولة ومع العلم صفحاتٍ مجيدة من التعاون والتآزر والسلام؛ فكيف يقال بعد ذلك إن هذا الأصل الذي سارت عليه أوروبة في فصل سياستها وعلومها وقومياتها عن الدين يجب أن

يطبَّق عندنا، ويجب أن نتلقّاه على أنه أصلٌ صالح لنا؟!

نريد أن نتفق على أصلٍ صالح للنهوض، ونريد أن نحدد الهدف معًا، حتى لا نختلف ولا نضلّ، ونريد أن نتبع الهدى الواضح والنور اللائح حتى لا نفشل ونقاسي من الآلام، ولا ينفعنا في ذلك إلا العودة إلى هدي الإسلام.

إن كنتم آمنتم بهذه الأصول في حياة أوروبة على أنَّها حقائق لا تقبل النقض، فاعلموا أنها لا تتفق مع الإسلام، وأنكم بذلك تصطدمون بإسلامكم، فكونوا شجعانًا وكونوا صرحاء في إعلان الخروج على الإسلام حتى لا تخدعوا أنفسكم وتخدعوا الناس، وإن كنتم آمنتم بالإسلام على أنه حقٌّ ثابت فنحن نرضى أن نتحاكم جميعًا إليه، وحينئذٍ سنلتقي ونتفق وستعلمون أنَّ الدولة وأنَّ العلم من أركان الإسلام»[1].

*** الأستاذ البنا يزأر بالحق في عرينه «النذير» ويكتب «متى يستقيم الظل والعودُ أعوجُ؟ على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً»:**

مضى البنا وصحيفته «النذير» في مواجهة أخطاء المجتمع والسياسة بقوة (متى يستقيم الظلّ والعود أعوج، على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً).

«أيُّ دين يبيح لكم هذا: في حفل وزير الخارجية الرسمي رقصٌ وشراب واختلاط!! اللَّهم إنَّ الإسلام لا يبيح هذا ولا يرضاه».

ونددَّت «النذير» بما نشرته الصحف عن سباق الخيل باعتباره بابًا لزيادة إيرادات الدولة.

وقالت: «هل ضاقت بوزير المالية مصادر الزيادة في الإيرادات فلم يجد

(١) «حسن البناء» (ص١١٦ ـ ١٢٠، ٥٣١، ٥٣٢).

أمامه إلا باب الميسر والمال الحرام»!!

ولما قصد وزير المالية والنائب العام إلى ميدان السباق قالت: «إنَّ هذا فرعٌ من الميسر لا شك فيه قد نهانا عنه الشرع وحرّمه الدين.

لئن ربح النائب العام جنيهات معدودة لقد خسر رضاء اللَّه وثقة المسلمين».

وهاجمت «النذير» حديثًا للشيخ مصطفى عبدالرازق حين قال: «أنا لا أقرّ فضيلة الشيخ أبي العيون على مقترحاته بخصوص الآداب على الشواطيء ولا أذهب مذهبه».

وقالت: «لقد عرف الجميع عصريَّته التي قد تخالف الحياة الإسلامية الصحيحة، ولكن ما كان أحدٌ يتصوّر أن يذهب إلى مثل هذا الجواب الملتوي، كنا نتصور أنَّه موافقٌ مثلاً على اختلاط الجنسين في الجامعة، ولكن ما كنا نتصور أنه لا يقرّ مقترحات الشيخ أبي العيون التي يرمي بها إلى القضاء على الفساد الذي يُرتكب في الشواطيء أمام بصر الحكومة وسمعها.

وما كنا نظن أنَّ الشيخ مصطفى عبدالرازق - خريج الأزهر الأغر - يسكت عن إبداء رأيه في مقترحات الشيخ أبي العيون بما يُفهم منه عدم رضاه عنها».

وعارض الأستاذ البنَّا شيخَ الأزهر حين أعلم موافقَته على أن يلبس رجال الجيش القبَّعة شبيهًا بالجنود الأجانب.

وقال: «إنَّ لبس القبعة أمرٌ يحرِّمه الدين أشدَّ التحريم، لما يستتبعه من مفاسد وأضرار، فقد حرَّم الإسلام كلَّ لباسٍ يُضعِف في نفس المسلم معنى الفكرة الإسلامية بأن يجعله شبيهًا بالكفار في الهيئة وإن لم يكن هذا اللباس خاصًّا برجال دينهم، وقد وضع الإسلام في ذلك وغيره قاعدته المعروفة:

«من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1].

❑ وكتب يقول: «أجل لا بد من جديد في هذه الأمة؛ ولكن أتدرون ما هو الجديد الذي لا بد منه، ولا إصلاح بدونه؟ إنه تغيير القلوب، وتبديل النفوس، وتطهير الأرواح، وتزكية السرائر والضمائر، والعودة إلى اللَّه من جديد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الجديد هو تغيير هذه النظم المرقعة المهلهلة التي لم تجنِ منها الأمة إلا الشقاق والفرقة، هذه الأوضاع البالية الفاسدة التي نُقلت إلينا من أرضٍ غير أرضنا وبلدٍ غير بلدنا، ولم تُصلح أهلها فضلاً عن إصلاحنا.

الجديد هو العودة إلي كتاب اللَّه ونظم الإسلام في الحكم والقانون والسياسة.

أيها الزعماء: ما دمتم ضعاف العزائم والإرادات فلن تصلح على أيديكم مصر وما دمتم تحبون أنفسكم أكثر من هذا الوطن وتعملون لمصالحكم الشخصية أكثر مما تعملون لهذه الأمة؛ ستظل هذه الأمة كحمار الرحى يدور والمكان الذي بدأ منه هو الذي ينتهي إليه، وستُحَلُّ وزارة بعد وزارة.

وأنت أيها الشعب، إنَّ القومَ يغررون بك ويخدعونك عن دينك. ضعوا عن أبصاركم هذه المناظير الملونة التي قدمتها لكم أوروبة وروّجها عليكم ساسة العصر، وانظروا إلى الإسلام بنور اللَّه الذي هداكم به».

❑ ولما ذهب الشيخ مصطفى عبدالرازق ـ وهو وزير ـ إلى إحدى الحفلات الراقصة بعمامته، كتبت صحيفته تقول: إلى اللَّه نبرأ من هذه العمامة.

ولما وقف مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد ليعترض على الشريعة

(١) المصدر السابق (ص ١٢٠ ـ ١٢١).

الإسلامية ويسخر بها؛ تعرّض له في حزمٍ وأدبٍ إسلامي جمّ وبراعة فائقة:

«لقد تصوّر (رفعة الباشا) هذه الحركة بأنها وليدة مؤامرة يُراد بها تعويق سير مؤتمر إلغاء الامتيازات، ويعترف بأن الحدود مقررة في شريعتنا، ولكنها لا ترضي الأجانب، ثم ذكر أنَّ القائمين بهذه الحركة لا قيمة لهم ولا وزن، ثم بيّن أنه ليس المراد بهذه الحركة وجه اللَّه ولا إعلاء كلمة اللَّه، فإن الإسلام بحمد اللَّه عالي الجنبات.

هذا كلامٌ يجب أن لا يمرّ على الأمة دون أن نبين ما فيه:

إن المطالبة بالشريعة الإسلامية وإحلالها محل التشريع ليست مؤامرةً ولكنها شعورٌ قويّ فيَّاض يجيش به قلب كل مسلم، وأمنية عزيزة كريمة يراها المصريون جميعًا أسمى أمانيهم، وواجبٌ حتم مروض، إن لم يقم به أناس فقد أثموا إثمًا عظيمًا، وعرَّضوا أنفسهم في الدنيا لعذاب الجريمة واضطراب الأمن وفساد الخُلق، ولعذاب اللَّه في الآخرة: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٤٩].

وسيظل الإخوان يطالبون بإعادة التشريع الإسلامي كركنٍ من أركان حياة مصر الإسلامية حتى يحقق اللَّه غايتهم أو يموتوا دونها.

أما أنَّ الأجانب لا يرضيهم هذا فنحن نعيش في بلادنا لأنفسنا لا للأجانب، وإن قهرتنا الظروف في بعض الأحيان على المجاملة واللين فلن ينسينا ذلك أن لنا حقًّا مهضومًا لا بد أن نناله، ولا ينسينا ذلك أن ننتهز الفرص لنتحرر من هذا الرقّ والتحكم في شئون حياتنا المصرية ممن لا يمتّون إلينا بصلة، وكان على الزعماء أن يصارحوا الأمة بأننا غير أحرار في تشريعنا وغير أحرار في أموالنا، ويهيبوا بنا أن نعمل جاهدين لنستكمل الاستقلال

الحقيقي في الإدارة والحكم والشريعة والاقتصاد، ولكن الزعماء ـ عفا اللَّه عنهم ـ قنعوا من الاستقلال بوثيقةٍ لا قيمة لها وتركوا الشعب مكبّلاً في كل ناحية من نواحي حياته.

أما المطالبون بالتشريع فليسوا قلةً بحيث لا يقام لهم وزنٌ ولا يُرهَب جانبُهم، بل هم المسلمون جميعًا والمنصفون من غير المسلمين كذلك، إنهم الشعب المصري. وسيعلم الزعماء ـ إن لم يكونوا يعلمون ـ أنَّ هذه الغاية ليست غايةَ فردٍ ولا جماعة، ولكنها غايةُ كل مصري يعيش في هذا البلد، ولئن ضبطت الأمة شعورها وآثرت الحكمة في السير، فليس معنى هذا أنها نسيت أو تغافلت، وستأتي الساعة التي يدوّي فيها هذا الصوت رائعًا قويًّا رهيبًا يصمّ الآذان ويخلع قلوب المترددين المتحللين؛ ﴿**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾ [الإسراء: ٥١]!!.

بقي أن الإسلام عالي الجنبات رفيع الذرى، وإنه لكذلك، وإن اللَّه له لحافظ، وإن أرواح المسلمين له فداء، ولكن الزعماء ـ هداهم اللَّه ـ في ناحيةٍ وهذا الإسلام العالي الجنبات في ناحية أخرى.

أنت معنا بنصّ هذا الخطاب في أنَّ قطعَ يد السارق، ورجم المحصن، ومنع التعامل بالفائدة من القواعد المقررة في شريعتنا السمحة، وطبعًا إنَّ محاكمنا وقوانيننا تتعامل بغيرها، فنحن إذن على اتفاق في أننا نتحاكم إلى غير كتاب اللَّه ونظام الإسلام ونحن مع هذا مسلمون!!

فهل أنتم راضون عن هذا أو ساخطون عليه؟

إن كانت الأولى فقد حاربتم الإسلام ورضيتم بضياع أحكامه؛ وإن كانت الثانية فهلاَّ فكرتم في أن نتعاون جميعًا على إزالة هذا المنكر، والمطالبة معًا بتشريع الإسلام وتذليل العقبات في هذا السبيل، ومصارحة الأمة بأنه لا

يصلحها إلا هذا، وتقويتها تقويةً تامة للوصول إلى هذه الأهداف، وحينئذٍ تتخلَّصون من التبعة بين يدي اللَّه وتنصحون الأمة».

* وعن معركة فلسطين قال:

«إن أشدَّ ما يمكِّن لأعدائكم في دياركم قعودكم عن نصرة إخوانكم، فقد كانت الأندلس تُغتصَب في الوقت الذي فيه مصر القومية تصادق فرنسا المغتصِبة».

* كلامه عن المحاكم الأهلية:

وعندما جاء العيد الخمسون للمحاكم الأهلية واحتفلت به دوائر الصحافة والحكومة أعلن صيحةً مدوّية:

إنَّ المحاكم الأهلية بنظامها الحالي وتشريعها الحالي تصطدم بتعاليم الإسلام في عدة نواحي:

أولاً: في الحدود التي ذكرها القرآن وأثبتتها السنة الصحيحة للسارق والزاني والشارب ونحوهم من قطع اليد والجلد والرجم.

ثانيًا: في إعفاء الزانيين من العقوبة إذا رضيا عن هذا الزنى في سنٍّ محدودة.

ثالثًا: في إباحة الفائدة في الربا.

إن التشريع الحالي في المحاكم يصطدم بتعاليم الإسلام وأحكامه في هذه النقاط وفي غيرها، ومعلوم أن الأمة التي تحتكم إلى هذه المحاكم وتطبق عليها هذا التشريع أمةٌ إسلامية تدين بالإسلام، وتنزل على حكمه، وتعتزُّ به وبتعاليمه؛ فلا بدَّ من تعديل التشريع الحالي بما يتناسب مع الدستور ومع القوم الذين يطبَّق عليهم التشريع لرفع هذا التناقض القائم بين القانون الكلي للدولة وهو الدستور وبين القانون الجزئي وهو تشريع المحاكم الأهلية.

* رده على «سامي الكيالي»:

وهو لا يتوقف عن مواجهة كل كاتب وباحث إذا ما خالف الطريق.

ومن ذلك ما وجَّهَه إلى صاحب مجلة الحديث (سامي الكيالي):

«يا أستاذ سامي: إنك مسلمٌ عربي، الإسلامُ فخارُك ولا مجد لك إلا به، والعربيةُ قوميتُك فلا عزة لك بدونها، وإن تشدَّق التركي بطورانيته والمصري بمصريته فلن تجد لك إلا العرب والإسلام، فأنت من بيتٍ كان أولى الناس بالدفاع عنهما والانتصار لهما؛ فلتنفض يدك من هذه الشيعة الشعوبية المفارقة، ولتطهِّر (الحديث) من مغامزهم.

ولا يهولنك قطع الصلة بهؤلاء؛ فلأن تصل الحقَّ أولى وأجلّ، وليبدلنَّك اللَّه منهم أرضًا بأرض وإخوانًا بإخوان.

لقد حشوتَ مجلتك بتعسُّفات الدكتور طه في العلم والدين والأدب، وتبجُّحات سلامة موسى وإسماعيل مظهر والشاعر الزهاوي، وبالغتَ في صوغ عبارات المدح والثناء لهم؛ وهم الذين هاجموا الإسلام في أرسخ قواعده، وكادوا للقومية العربية في أظهر مزاياها.

ورأيناك تقرظ كتاب (حرية الفكر) وفيه من المغامز ما لا يتسع المقال لنقله، وتشيد بذكر كتابَي (الشعر الجاهلي) و(الأدب الجاهلي) وتنتصر فيهما لأستاذك؛ ولقد أجمع العقلاء على ردِّهما، وتنشر القصيدة التائية للزهاوي وكلُّها إنكارٌ للبعث والروح، وتنشر لكاتبٍ ألمانيٍّ مقالاً بعنوان (خديجة) أساء بها إلى مقام الرسول الأعظم ﷺ وأم المؤمنين رضي الله عنها، إلى ما فيه من خلطٍ شطط؛ ولم تعلِّق عليه بكلمة غير أن نقلتَ حديث الإفك من البخاري.

شيءٌ آخر، ذلك هو أنَّ الناس جميعًا يعلمون أنَّ هذا الانقلاب التركي وما كان ينويه (أمان اللَّه) في الأفغان هو عداءٌ كامن للعربية ومحاربة صريحة للإسلام وانسلاخٌ عن شريعته، ومع هذا فأنتم تحبِّذونه، وتنشرون فيه كلمات

التشجيع والإغراء.

* **للّه در البنا:**

لقد عمل البنا على تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة الإسلامة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها ﴿**صبغة اللّه ومن أحسن من اللّه صبغة**﴾.

لقد حمل البنا حملة قوية على المناوئين والمنحرفين عن الجادة، وتكلم بلسان المصلح عن أسباب التخلف وردّها إلى الانفصال عن أحكام اللّه ونظامه وقرآنه فقال رحمه اللّه:

أيها الناس: إن اللّه بعث لكم إمامًا ووضع لكم نظامًا، وفصَّل أحكامًا وأنزل كتابًا، وأحلَّ حلالاً وحرَّم حرامًا؛ فهل اتبعتم إمامه واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه وأحللتم حلاله وحرَّمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترَون الحقيقة، واضحةً أمامكم: إن كل النظم التي تسيرون عليها في شئون الحياة نظمٌ تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه!!

نظام الحكم الداخلي، نظام العلاقات الدولية، نظام القضاء، نظام الدفاع والجندية، نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد، نظام الثقافة والتعليم، نظام الأسرة والبيت، نظام الفرد في سلوكه الخاص.

إنَّ الروح العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين ويشكِّل مظاهر الحياة على اختلافها كلٌّ ذلك بعيدٌ عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

من الحق أن نعترف بأنَّ موجةً جارفة وتيارًا شديدًا دفاقًا قد طغى على العقول والأفكار في غفلةٍ من الزمن وفي غرور من الشعوب المسلمة وانغماسٍ منهم في الترف والنعيم، وعزت الأمةَ الإسلامية في عقر دارها، وأحاطت بالمسلمين في كل مكان، ودخلت بيوتَهم ومخادعهم؛ بل احتلَّت قلوبَهم

وعقولهم ومشاعرهم!!.

ونشأ في كل الشعوب الإسلامية جيلٌ مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدَّر في تصريف أمورها واحتلّ مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب الغافلة إلى ما يريد، إننا بعُدْنا عن هدي الإسلام وأصوله وقواعده!!

حقًّا لقد تقدَّم العلم والطب والفن والفكر، وتزايد المال، وأخذت الأرض زينتها وازَّينت، وأُترف الناس ونُعِّموا، ولكن هل جلب هذا لهم شيئًا من السعادة، وهل أمَّن لهم شيئًا من الحياة الكريمة؟!

هل حُوربت الجريمة واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟!

هل استغنى الفقراء وأشبعَتْ الملايين التي تفوق الحصر من بطون الجائعين؟!

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن التي ملأت الفضاء وسرتْ مسرى الهواء العزاءَ إلى المحزونين؟!

هل تذوَّقتْ الشعوب طعمَ الراحة والهدوء، وأمِنتْ عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟

لا شيء من هذا!!

أيها الناس فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات؟!

ألسنا نرى هذه النظم والتعاليم والفلسفات حتى في العلوم وفي الأرقام يحطِّم بعضُها بعضًا، ويقضي بعضها على بعض؟!

*** ما مهمتنا إذن؟**

أما إجمالاً: فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدَتها عن زعامة

النبي ﷺ وهداية القرآن، وحرمتْ العالم من أنوار هديهما، وأخَّرتْ تقدُّمَه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا.

ولسنا واقفين عند هذا الحدّ، بل سنلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها حتى يهتف العالم كلُّه باسم النبي ﷺ، وتوقن الدنيا بتعاليم القرآن وينتشر ظلّ الإسلام الوارف على الأرض.

وحينئذٍ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنةٌ، ويكون الدين كله للَّه ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

أما في التفاصيل: فهي أن يكون في مصر أولاً ـ بحكم أنَّها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه ثم في غيرها كذلك:

* نظامٌ داخلي للحكم يحقق قول اللَّه تبارك وتعالى:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

* ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

* ونظام عملي للقضاء يستمَدّ من الآية الكريمة:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* ونظام للدفاع والجندية يحقق مرمى النفير العام:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١].

* ونظام اقتصادي استغلالي للثروة والمال، للدولة والأفراد، أساسُه قول

اللَّه تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ [النساء: ٥].

* ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة، ويطابق جلال الوحي في أول آية نزلت من كتاب اللَّه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق: ١].

* ونظام للأسرة والبيت ينشيء الفتى المسلم، والفتاة المسلمة، والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦].

* ونظام للفرد في سلوكه الخاص يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى:

﴿قد أفلح من زكاها ۝٩ وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

* وروحٌ عام يهيمن على كلِّ عامل في الأمة من حاكم ومحكوم قوامُه قوله تعالى:

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ [القصص: ٧٧].

❑ نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الشعوب الإسلامية وتضم شتات المسلمين وتستعيد مجدَهم وتردّ عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل بعد ذلك علم الجهاد ولواء الدعوة إلى اللَّه حتى نُسعد العالم بتعاليم الإسلام.

سيقول الذين يسمعون هذا: إنه الخيال بعينه، وإنه الوهم، وإنه الغرور، وأنَّى لهؤلاء الذين لا يملكون إلا الإيمان والجهاد أن يقاموا هذه القوى المتألِّبة المجتمعة والأسلحة المتنوعة المختلفة، وأن يصلوا إلى حقِّهم وهو بين

ذراعَي وجبهة الأسد.

سيقول كثيرون هذا، ولعل لهم بعض العذر؛ فهم قد يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من صلتهم بالقوي القادر، أما نحن فنقول: إنها الحقيقة التي نؤمن بها ونعمل لها، ونحن نقرأ قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤].

وإنَّ الذين فتحوا أقطار الدنيا ومكّن اللَّه لهم في الأرض من أسلافنا؛ لم يكونوا أكثر عددًا ولا أعظم عدة، ولكنهم كانوا مؤمنين مجاهدين وكفى»[1].

* كلمته إلى الوزراء وأولياء الأمور:

في يونيو ١٩٤٣م توجَّه مجموعة من الوزراء لزيارة البنا: فؤاد سراج الدين، وعبدالحميد عبدالحق، ومحمود سليمان غنام، وأحمد حمزة، ودكتور محمد صلاح الدين، وكان مما قاله البنا:

«كلمةٌ خاصة أوجهها إلى أصحاب المعالي الوزراء خاصةً، وإلى أولياء الأمور عامةً، بعاطفة الوطني لا بلسان السياسي، وهي النصيحة الواجبة لا معدى عنها ولا مناص، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدين النصيحة**. قلنا: لمن يا رسول اللَّه، قال: **للَّه، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم**».

إنكم أولياء الأمر ورعاة الشعب، وأنتم المسئولون بين يدي اللَّه عما استرعاكم، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيَّته**»، وفي أيديكم سلطاتٌ واسعة لا يحجزكم شيءٌ عن استخدامها والانتفاع في خير هذا الشعب بها، وقد قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إن اللَّه

(١) «حسن البنا» (ص١٠٦ ـ ١١٠).

ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، فاقدروا هذه التبعة وإنها لعظيمة، واستخدموا هذه السلطات في محاربة المنكرات الفاشية وعلاج الآفات الكثيرة، والقضاء على المعاصي والآثام المنتشرة، وتقرَّبوا إلى اللَّه بمناصرة المعروف وتغيير المنكر وصالح العمل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١][1].

*** للَّه درّك يا بنا ودرّ أسودك في فلسطين:**

كانت معركة فلسطين هي الشغل الشاغل لحسن البنا، وترجم هو وأبناؤه ذلك عمليًّا.

كان يوم ٧ ديسمبر ١٩٤٧م يومًا حاسمًا حين انعقد المؤتمر العربي الكبير في الجامع الأزهر من أجل فلسطين وقال البنا في كلمته:

«ليس هذا العدوان الذي اجتمعنا اليوم من أجل التفكير في وسائل دفعه عن أرض العروبة والإسلام نظير في تاريخ البشرية كلها، فلم يحدث أن تآمرت طائفة من الناس على أرض أمة من الأمم فاحتلتها بالخديعة، ثم اقتطعت منها ما شاءت بالإرهاب، ثم سخرت أمم المادة والشهوات لتحكم لها بما أرادت؛ بشراء الذمم واحتكار الضمائر والمساومة على الأصوات، ثم زعمت أنها ستقيم دولة، وتنشيء حكومة لتعيش بين هذه المجموعة الضخمة من الشعوب رغم أنفها».

«إن قرار التقسيم الظالم الذي يقر قيام دولة صهيونية في قلب بلاد العرب لا ينال فلسطين وحدها، ولكن يتعداها إلى كل وطن عربي آخر بجوارها، ثم إلى الأوطان الإسلامية جميعًا، فإن اليهود لا يخفون نواياهم، ولكنهم يجاهرون ويهتفون بأن ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل، بل إنهم

(١) المصدر السابق (ص١٤٣).

ليحلمون بيثرب موطن بني قريظة وبني النضير سابقًا، ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم اليوم، ومستقر أكرم إنسان عرفته الإنسانية سيدنا محمد ﷺ، ولن يصلوا إلى شيء بإذن اللَّه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]».

«إن المسلمين في بقاع الأرض سيقاومون بكل ما فيهم من شدة هذا العدوان الصارخ، ولن يستسلموا أبدًا لمستعمر الأمم المتحدة المزيفة، ولا لإرهاب الصهيونية الذليلة وقوتها المصطنعة، وسيرى الذين يشكون أو يتشككون في مقدرة المسلمين وقوتهم واستعدادهم للدفاع أنهم واهمون.

وإننا بحمد اللَّه نملك من القوة المادية والمعنوية ما نصل به إلى النصر إن شاء اللَّه، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

«إننا معشر المسلمين على اختلاف بلادنا قد تفهمنا سرّ الشهادة، وتذوق أسلافنا حلاوتها، وقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يكون جنديًّا للحق، يذود عنه بنفسه وماله وروحه، ولا يتردد في ذلك أبدًا، إننا نؤمن بأن آجالنا محدودة وأيامنا معدودة، وإننا نؤمن بأنه لن يصيبنا شيء إلا بقضاء اللَّه». اهـ.

«وكان الأستاذ البنَّا قد أعلن أنه سيدخل إلى فلسطين في عشرة آلاف مجاهد كدفعة أولى، ولكن الاستعمار البريطاني حال دون تحقيق ذلك، ورفضت حكومة (النقراشي) السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط في الجزء الشمالي من صحراء النقب، فاتخذوا سبيل التعمية وذهبوا إلى سيناء في رحلة علمية، ومنها دخلوا إلى فلسطين سرًّا حيث لحقت بهم دفعات أخرى.

وبدخول أفواج الإخوان في فبراير (شباط) ١٩٤٨م بدأ القتال الفعلي في صحراء النقب، حيث أخذوا في مهاجمة المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة، رغم قلة عددهم وضعف أسلحتهم، وتجمع حولهم المجاهدون من

أهل فلسطين، وبدأت حرب عصابات منظمة، غير أن الحكومة طلبت من الإخوان سحب قواتهم من النقب، ورفض الإخوان، فقطعت عنهم الإمدادات، فلم يثنهم ذلك شيئًا، وعاشوا أيامًا طوالاً على التمر والماء وعلى الخبز اليسير الذي يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة، حتى دخل الجيش المصري البلاد وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية في النقب، واشتركوا في معظم العمليات، فلم تراجع الحكومة موقفها، بل شددت رقابتها، واضطر الإخوان إلى السير على الأقدام فتتابعت جموعهم، وكان أكثرهم شبابًا أحداثًا، جاؤوا راغبين في تأدية فريضة الجهاد، غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع في قطارات السكك الحديدية، وساروا مسافات شاسعة في صحراء سيناء!!.

كان الإخوان خطرًا كبيرًا على كيان إسرائيل، فقد نجحوا في التسلل عبر الحدود، ولم تمض أسابيع قليلة على بداية الصدام حتى حمل الإخوان لواء الجهاد الشعبي، ونجحوا في إدخال عدد كبير من خيرة شبابهم من مصر وسورية وشرق الأردن، وساهم إخوان سورية بقيادة (مصطفى السباعي)، ثم قدّم الإخوان شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها في معسكر (الهايكستيب)، ثم تسللت إلى فلسطين بقيادة أحمد عبدالعزيز، وعبدالجواد طبالة.

وقام الإخوان بدورهم في معارك فلسطين في بسالة أدهشت القوات المصرية، وأدهشت الإنكليز واليهود على السواء.

بل إنهم في فترة من الفترات كانوا طلائع للجيش المصري تحميه وترد عنه عادية المباغتات.

وكان الأستاذ البنَّا يعدّ العدة في ذلك الوقت لأن يقدم إلى فلسطين مع قوة ضخمة للدفاع عن القدس، حيث كان اليهود يشنون هجمات عنيفة على

مراكز الجيش الأردني، وكان على وشك إعلان الجهاد الديني والتعبئة الشعبية بعد أن فشلت الحكومة وجامعة الدول العربية.

على أن هذه الحركة لم يقدر لها النجاح، بل لعلها هي التي سارعت بالعمل على حل الإخوان وتصفيتهم بعد أن هز قتالهم الرائع في فلسطين دوائر الاستعمار والصهيونية، ووقفت الحكومة المصرية ضد تقدمهم، وأمرت بانسحابهم من المواقع التي كانوا يحتلونها إلى معسكراتهم.

وكان جمع المجاهدين من الإخوان في معسكراتهم والحد من نشاطهم مقدمة لهذا العمل الذي دُبِّر بليل.

لقد كشفت معركة فلسطين عن أشياء كثيرة، عن ظهور جيل جديد يؤمن باللَّه والجهاد في سبيله، ويحمل السلاح ويقاتل، ويواجه الاستعمار البريطاني والاحتلال الصهيوني، وهو ما عمل الاستعمار سنوات طويلة دون وقوعه ولقد رأى الاستعمار هؤلاء الذين يستشهدون فرحين بلقاء ربهم، وشاهد صورًا عجيبة من بطولة هؤلاء المؤمنين.

لقد كشف الإخوان بدخولهم معركة فلسطين عن حقيقة خطيرة، هو أنهم أصبحوا قادرين على العمل في ميدان من شأنه أن يقلب خطط الاستعمار رأسًا على عقب، فكان لا بد من القضاء على ذلك كله.

وكان مما أشار إليه الأستاذ البنَّا من عبرة فلسطين قوله: «كنتم تقولون متحمسين: الجهاد سبيلنا، فأبتسم ابتسامة الإشفاق، وأقول عند الامتحان، فجاء الامتحان القاسي في قضية فلسطين، فأثبتم صدقكم وصدق إيمانكم، وألحقكم ـ والحمد للَّه ـ بسلفكم الصالح من الأنصار والمهاجرين»[1].

* لا يؤمنون باللَّه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي ص(٢٣٢ ـ ٢٣٤).

نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

قيل بين مَن ومَن؟

والجواب إنها بين الإخوان المسلمين الذين رأوا منذ عشرين سنة انحراف العالم كله عن جادة الصواب وضلاله في مسالك النظم الاجتماعية الفاسدة، وإهماله لهذا النظام الرباني الكريم والصراط المستقيم. كما رأوا كذلك نسيان أهل القرآن أنفسهم والمنتسبين إليه من أبناء الأمة الإسلامية لما فيه من روائع الحكم والأحكام، وانصرافهم عنه إلى مبادئ ودعوات لم يعرفوها، ونظم وأحكام لم يألفوها، جرّت عليهم الخيبة والفساد في الدنيا، وسيكون جزاؤها الندم والعذاب في الآخرة، فقاموا منذ هذا التاريخ يهتفون «القرآن دستورنا» ويطالبون في إلحاح بأن يكون للقرآن أمته الواعية، ودولته العاملة.

المعركة بين هؤلاء وبين أولئك من الصنفين: الذين لا يؤمنون به على اختلاف أممهم ودولهم وعقائدهم ليؤمنوا، والذين آمنوا به على اختلاف طوائفهم وهيئاتهم وأحزابهم ومذاهبهم ليتذكروا ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قيل وعلى أي أساس تدور؟

والجواب: إنها تدور بالحكمة والموعظة الحسنة، والبيان الصريح الكافي والدعوة الواضحة المشرقة، على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولن ندع الخصوم يفلتون من ثنايا وجوه التأويل والتفسير، أو يفرون من أبواب النقاش والجدل العقيم، بل سنوقفهم أمام النص المحكم وجهًا لوجه، فلا يستطيعون منه فرارًا أو إفلاتًا، فإما عناد وإما تسليم:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قيل وما النتيجة المرجوة من ذلك؟

والجواب: التميُّز أولاً، فلا بدَّ أن يمتاز أهل الحق من أهل الباطل، وحينئذٍ يزداد الذين آمنوا إيمانًا بعد وضوح حجتهم وبيان محجتهم، ويتعثر أهل الرجس في رجسهم، ويشعرون بمرض القلب، وظلمة النفس وفداحة الجرم، ومرارة الإثم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا، وما طال عمر الباطل إلا حين يمتزج به ستار من الحق، أو يمتزج هو بعناصر من الحق، وما قعد بالحق شيء كاختلاطه بطرف من الباطل ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، ورحم اللَّه القائل: «ميِّزنا يا خالد» وحين يتم هذا التمييز في الموازين والقواعد، ثم في النفوس والمشاعر، ثم في الأعمال والتصرفات، تحدَّد بفعاله الحقوق والواجبات، وينتصر أهل الحق بحقهم، ويتفرق أهل الباطل عن باطلهم، وتكون العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه».

ولم يتوقف الأستاذ البنَّا عند هذا، بل بلغ إلى أقصى غايات النصح والتوجيه والإعذار إلى اللَّه، فكشف عيوب النظام السياسي المصري في جملة مقالات متوالية تحت عنوان:

ألا هل بلغت؛ اللَّهم فاشهد.

وقال بصراحة: «إن النفوس لن تقنع ولن تطمئن إلا إلى رسالة جديدة ولون من الحياة جديد».

وأشار إلى الكفاح والتطاحن بين الآراء والأوضاع، ودعا إلى الاختيار، وقال في صراحة تامة:

«إذا لم نختر اليوم ونحن راضون فسنقبل غدًا ـ بل الغد القريب ـ

ونحن مرغمون، وإني لأرى الوميض خلال الرماد يوشك أن يكون له ضرام، أمامنا الشيوعية والاشتراكية، وهما معتبران ـ من منطق التحالف الدولي اليوم ـ من معاني الديمقراطية، ولا يستطيع الديمقراطيون أن يقدموا غير هذا، وأمامنا كذلك نظام الإسلام، وتوجيه الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام».

وقال: «ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحرارًا في الاختيار، فإننا جميعًا آمنا بهذا الإسلام الحنيف دينًا ودولة، واعتبرنا مصر دولة إسلامية، بل هي زعيمة دول الإسلام.

إذن فلا مناص للحكومة المصرية والهيئات المصرية والأحزاب المصرية من أن تفي بعهدها الشرعي للّه ولرسوله؛ يوم نطقت بالشهادتين، فالتزمت الإسلام، وبعهدها المدني الوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور، ونصت فيه على أن الدين الرسمي هو الإسلام، وبغير هذا تكون قد غدرت بعهدها، وخانت أمانة اللّه والناس عندها، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه، ولا محل اليوم للمداورة والخداع.

فهل تصيغ الآذانُ المغلقة إلى هذا النذير، فنعودَ إلى حجر الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقًا.

يادولة رئيس الحكومة، يا رجال الأزهر الشريف، يا رؤساء الهيئات والجماعات والأحزاب، ويا أيها الغُيَّر على مصلحة هذا الوطن العزيز، ويا أبناء هذا الوطن جميعًا؛ إليكم أوجه النداء، فإلى تعالى الإسلام ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٨]، ألا هل بلغت، اللّهم فاشهد.

❑ وقال ـ رحمه اللّه ـ: «إن العالم الآن تتجاذبه شيوعية روسية من جانب، وديمقراطية أمريكية من جانب آخر، وهو بينهما مذبذب حائر، لن

يصل عن طريق إحداهما إلى ما يريد من استقرار وسلام.

وفي أيديكم أنتم قارورة الدواء من وحي السماء، فمن الواجب علينا أن نعلن هذه الحقيقة في وضوح، وأن ندعو إلى منهاجنا الإسلامي في قوة، ولن يضيرنا أن ليس لنا دولة ولا صولة، فإن قوة الدعوات في ذاتها، ثم في قلوب المؤمنين بها، ثم في حاجة العالم إليها، ثم في تأييد اللَّه لها متى شاء أن تكون مظهر إرادته وأثر قدرته ورحمته: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦].

لا بد لنا أن نتسلم الراية: راية الحضارة الإنسانية لنسعد الناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتخبَّط، لا بد لنا من هذا، وإننا لواصلون إليه، واللَّه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولتعلمن نبأه بعد حين.

الدنيا كلها حائرة ضالة لاهية، كلها تنظر إلى القيادة ومكانها شاغر، لن يملأه غيركم باسم اللَّه وباسم محمد ﷺ.

أجدد البيعة على أن أظلَّ - كما عرفتموني جميعًا في أول يوم - عاملاً مجاهدًا مكافحًا في سبيل دعوة الحق، لا ألين ولا أملّ ولا أتغير، حتى يحق اللَّه الحق؛ واللَّه على ما أقول وكيل»[1].

* الرجل القرآني: حسن البنا لروبير جاكسون:

زار الكاتب الأمريكي روبير جاكسون مصر سنة ١٩٤٦، وسنة ١٩٤٩، ووصف هذا الكاتب الشيخ البنا وكتب عن أثر دعوته فقال:

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي ص(٢٣٥ - ٢٤١).

«إن معركة فلسطين، ومعركة التحرير الأخيرة في القناة، قد أثبتتا بوضوح أن الرجل صنع بطولات خارقة، قلّ أن تجد لها مثيلاً في تاريخ العهد الأول للدعوة الإسلامية».

وقال: «وقد أُتيح لي أن ألتقي بوالده الوقور الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا[1] وسمعته يتحدث مع بعض الإخوان، أنه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب في أمر الإسلام واكتفى بذلك، قد ردّ عليه الأستاذ البنا بأنه منشرح الصدر لمعالجة الإسلام عن طريق تأليف الرجال».

وقال جاكسون أيضًا عن البنا: «كأنما أراد أن ينشيء للشرق روحًا جديدة من المثل العليا؛ هذه المادة الضائعة التي هزم بها الشرق الدنيا وفتح بها أطراف الأرض».

وتكلم عن رحلاته الدعوية إلى أكثر من أربعة آلاف قرية، وزيارته كل قرية بضع مرات بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام!!

قال البنا لجاكسون: «هل قرأت عن محمد ﷺ؟ قال: نعم، قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قال: نعم. قال: هذا هو ما نريده».

قال جاكسون عن البنا أنه: «:ان يقتفي خطوات عمر وعلي، ويصارع في مثل بيئة الحسين فمات: «وقال: «كان لا بد أن يموت هذا الرجل الذي صنع التاريخ، وحوّل مجرى الطريق شهيدًا؛ كما مات عمر وعلي والحسين».

وقال: «عاش الرجل كل ظحة من حياته، بعد أن عجزت كل وسائل الإغراء في تحويله عن نقاء الفكرة وسلامة الهدف.. لم يحن رأسه، ولم يتراجع، ولم يتردد أمام المثبطات ولا المهددات. وكان الرجل قذى في عيون

(١) الشيخ عبدالرحمن البنا الساعاتي والد الشيخ حسن البنا هو المحدث المصري الشهير وصاحب كتاب «الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري».

بعض الناس، وحاول الكثيرون أن يقيدوا من القوة التي يسيطر عليها، فقال لهم: «إن أنصاره ليسوا عصا في يد أحد، وإنهم للَّه وحده».

«كان كل جانب من جوانب شخصيته يبرز كطابع خاص في الوقت المناسب، ولكل هذه الصفات التي تقرؤها في كتب شمائل الصحابة والتابعين، لم يكن مقدرًا أن يعيش طويلاً في الشرق... وكان لا بد أن يموت باكرًا، فقد كان غريبًا عن طبيعة المجتمع، يبدو كأنه الكلمة التي سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد.

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين أمام مثل هذا الرجل الذي أعلى كلمة الإسلام وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس، ونزعات القومية الضيقة، وأعدلت لهجات الكتاب، وبدأ بعضهم يجري في ركب «الريح الإسلامية».

وقال: «كان الناس يرونه غريبًا في محيط الزعماء بطابعه وطبيعته، فلما مات كان غريبًا غاية الغرابة في موته ودفنه، فلم يصلِّ عليه في المسجد غير والده، وحملت جثمانه النساء، ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الأتباع الذين كانوا يملئون الدنيا لسبب بسيط هو أنهم وراء الأسوار.

لقد نُقل الرجل بعد أن أسلم الروح إلى بيته في جوف الليل، ومنع أهل البيت من إعلان الفاجعة، وغسله والده، وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب. ولقد كان خليقًا بمن سلك مسلك أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل، أن تختتم حياته على هذه الصورة الفريدة المروعة، التي من أي جانب ذهبت تستعرضها، وجدتها عجيبة مدهشة!!.

إنه كان يدهش الناس في كل لحظات حياته، فلا بد أن يدهش الأجيال بختام حياته، إن الألوف المؤلفة قد سارت في ركب الذين صنع لهم الشرق

بطولات زائفة، أفلا يكون حسن البنَّا قد رفض هذا التقليد الذي لا يتم على غير النفاق.

إن هناك فارقًا أزليًا بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا للَّه ولرسوله ﷺ، إن هذا الختام العجيب سيظل مدى الأجيال يوقد في نفوس رجال الفكر النور والضياء، ويبعث في قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق في نفوس أهله حتى يمكنوا له»[١].

لقد قتل الأستاذ حسن البنا في ٢٢ فبراير ١٩٤٩م، ولاحظ سيد قطب في أمريكا أثناء زيارته لها في تلك الأيام مظاهر الفرح والابتهاج، بل والشماتة ـ عند الأمريكان لاغتيال البنا، حيث اعتبروه أخطر رجل في الشرق[٢].

❑ قال الأستاذ سيد قطب: «وقد قُتِل الشهيد حسن البنا، وأنا هناك في عام ١٩٤٩م، وقد لفت نظري بشده ما أبدته الصحف الأمريكية، وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا ـ من اهتمام بالغ بالإخوان، ومن شماتة وراحة واضحة، من حلّ جماعتهم وضربها، وفي قتل مرشدها»[٣].

❑ قال الأستاذ أحمد حسين زعيم «مصر الفتاة» عن البنا ـ رحمه اللَّه ـ في خطاب أرسله إلى فهمي أبو غدير (أكتوبر ١٩٧٦ في ظروف وأوقات معينة..

إن حسن البنا بتأسيسه جمعية الإخوان المسلمين كان استمرارًا لنضال مصر الإسلامية بعد أن تطورت ونشأت أجيال جديدة أراد لها الاستعمار أن

---

(١) انظر «حسن البنا» لأنور الجندي (ص٣٦٤ ـ ٣٩٠).

(٢) «سيد قطب» لصالح خالدي (ص١٨٨) دار القلم ـ دمشق.

(٣) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص١٠).

تجهل كل شيء عن الإسلام فجاء حسن البنا فجعلهم فرسانًا للإسلام»[١] .

* الدين النصيحة:

✍ مع إسهابي في بيان دور الداعية الرباني في المشرق ودعوته وصدعه بالحق إلا أنه يؤخذ من قوله ويترك، ولا يغض ذلك من قدره، وكان ـ رحمه اللَّه ـ رجل دعوة وحركة أكثر منه رجل علم وتحقيق[٢] ، فنترك من أقواله وأصوله أشياء حاد فيها عن منهج السلف.

❑ فنجده مثلاً في باب «الألوهية» يذكر الشرك ويحذر منه، ولكن تارة بأسماء مجملة كالمنكر ولا يصرح بكونه شركًا[٣] .

❑ قوله: بأن التوسل إلى اللَّه بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة[٤] .

❑ وفي كلامه على زيارة القبور يذكر الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بعض أنواع الشرك ولا يصرح بكونها شركًا[٥] .

❑ وفي الأسماء والصفات مال الشيخ إلى مذهب الأشاعرة المفوضة، فهو يراها من المتشابهات، ويفوض المعنى والكيفية[٦] ، وقوله: إن آيات الصفات من المتشابهات.

وليس هذا مجال الإسهاب وإنما نضع نقاطًا للخلاف معه تحتاج إلى

(١) «المدرسة الإسلامية» لأنور الجندي (ص٢٠، ٢١) ـ دار الاعتصام.
(٢) انظر (ص٥٦) من «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ البنا، ففيها ما يوافق هذا الكلام.
(٣) انظر «مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» (ص٣٥٦) ـ الأصل الرابع من الأصول العشرين.
(٤) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٨) ـ الأصل الخامس عشر.
(٥) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٨).
(٦) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٧، ٣٥٨).

إسهاب، فلقد ختم الشيخ البنا كلامه على الصفات بأن «رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى اللَّه تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع»[١].

❑ ولقد قال الشيخ ابن باز لما سُئل عن: «قول أحد الدعاة: إن آيات الصفات من المتشابهات[٢]، ثم ذكر رأيه فقال: ونحن نرجح مذهب السلف من تفويض علم هذه المعاني إلى اللَّه فهل هذا مذهب السلف، أم مذهب السلف تفويض الكيفية مع معرفة المعنى الكلبي؟

فأجاب ـ رحمه اللَّه ـ: «هذا غلط، هذا القول غلط، ليست من المتشابهات، من الواضحات، آيات الصفات وأحاديث الصفات أمر واضح، وليس فيها متشابه... فهي معلومة معروفة المعاني عند أهل السنة ولكنها مجهولة الكيفية، فالتفويض في الكيفية فقط.

أما من قال نفوّض معانيها إلى اللَّه فهذا قول المفوضة وهو قول قبيح قول منكر معناه أن اللَّه خاطب الناس بما لا يفهمون ولا يعقلون، وهذا غلط، أهل السنة والجماعة يفوّضون الكيفية فقط ويؤمنون بالمعاني وأنها حق.

الرحمن ـ الرحمة معلومة ـ السميع معروف السمع ـ البصير معروف البصر.. هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة «قاطبة» المعاني معروفة، والكيف مجهول، والإيمان بها واجب، أما التفويض فهو من قول أهل البدع، والقول بأنها مشتبهة من قول أهل البدع، فليس من المشتبهات بل من

(١) «مجموعة الرسائل» للشيخ حسن البنا (ص٤١٨).. يقول الشيخ خالد فوزي في كتابه «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» (ص٣٥٧)، وقد قرأت هذه العبارة منذ سنوات وبالتحديد عام ١٤٠٠هـ على العلاّمة عبدالرزاق عفيفي فأجابني بأن هذا هو مذهب الأشاعرة».

(٢) قال البنا في «مجموعة رسائل الإمام البنا» (ص٣٥٧، ٣٥٨) في الأصل الأول من أصوله العشرين «وآيات الصفات، وأحاديثه الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابه...».

المعلومات، ولا تفوض معانيها، إنما التفويض للكيفية، أما معاني الصفات فهي معلومة»[١] .

فقد كان البنا ـ رحمه اللَّه ـ محبًّا لمذهب السلف ولكن غابت عنه أشياء فيه، منها قولهم في الأسماء والصفات، ولو اطلع على أدلتهم بالتفصيل لرجع إليها إذ هو معروف عنه الإذعان للحق والرجوع إلى السنّة.

❑ ونخالفه ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من الشيعة، ومما هو معروف أن الشيخ البنا كان في «لجنة التقريب بين السنة والشيعة» وأثبت ذلك الأستاذ حامد أبو النصر «من شريط مسجل» وقوله: «أن المذهبان قاما جنبًا إلى جنب مئات السنين دون أن يحصل احتكاك بينهما إلا في المؤلفات «ونسى الشيخ أنه نشبت الفتن طيلة القرون وأريقت الدماء بسبب الشيعة، بل وظهرت جلية خيانتهم لأهل السنة وإعاقتهم فتح أوربا أيام الدولة الصفوية الشيعية.

❑ ونخالفه ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من أهل الكتاب، فقد ذكر الأستاذ التلمساني في جريدة الأخبار في عدد صدر بعد أحداث ١٩٨١م التي شهدتها مصر أنه كان في المكتب العام للإخوان نصارى»[٢] !! .

وانظر إلى ما قال شقيق الشيخ حسن البنا الأستاذ عبدالرحمن البنا في خطابه الذي وجهه لصلاح حافظ ونشره الأخير بجريدة أخبار اليوم عدد ١٩٨٨/٢/٢٠م الصفحة الأخيرة «أراد مسيحو دمنهور ذات يوم أن يبنوا كنيسة فاعترضهم الإخوان المسلمون وحضر الأستاذ المستشار ميلاد تادرس من دمنهور إلى الشيخ حسن البنا في القاهرة وأخبره بالأمر فأمسك الأستاذ حسن البنا بالتليفون وأمر الإخوان المسلمين في دمنهور أن يقوموا بالعمل في بناء

(١) مسجل من شريط رقم (١٥) من فتاوى حج عام ١٤٠٨هـ بالتوعية الإسلامية، مكة المكرمة.

(٢) «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» هامش (ص٣٦٣).

الكنيسة مع المواطنين المسيحيين».

وهذا الكلام عجيب حقًّا، فقد «اتفق المسلمون على أن ما بناه المسلمون من المدائن لم يكن لأهل الذمة أن يحدثوا فيها كنيسة؛ مثل ما فتحه المسلمون صلحًا، وأبقوا لهم كنائسهم القديمة؛ بعد أن شرط عليهم فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يحدثوا كنيسة في أرض الصلح، فكيف في مدائن المسلمين؟! بل إذا كان لهم كنيسة بأرض العنوة كالعراق ومصر ونحو ذلك فبنى المسلمون مدينة عليها إن لهم أخذ تلك الكنيسة، لئلا تترك في مدائن المسلمين كنيسة بغير عهد، فإن في سنن أبي داود بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تصلح قبلتان بأرض، ولا جزية على مسلم**»[1] ، والمدينة التي يسكنها المسلمون، والقرية التي يسكنها المسلمون وفيها مساجد للمسلمين لا يجوز أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر، لا كنائس ولا غيرها، إلا أن يكون لهم عهد فيوفي لهم بعدهم، فلو كان بأرض القاهرة ونحوها كنيسة قبل بنائها لكان للمسلمين أخذها؛ لأن الأرض عنوة فكيف وهذه الكنائس محدثة أحدثها النصارى؟»[2] .

فكيف تبنى كنائس جديدة، فضلاً من أن يقوم المسلمون بالعمل في بنائها؟!!.

ولم يكن الأمر مختلفًا بالنسبة لليهود!!، فقد جعل البنا ـ رحمه اللَّه ـ وغفر له الخلاف مع اليهود ليس دينيًّا، وذلك فيما قاله أمام لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية حيث قال: «باسم الإخوان المسلمين أؤيد ما أعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية، والناحية التي سأتحدث عنها

(١) **إسناده جيد**: أخرجه أبو داود في الإدارة (باب ٢٨)، والترمذي في الزكاة (باب ٧) وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٣/ ٢٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥). و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٦٧٧).

بسيطة من الوجهة الدينية؛ لأن هذه النقطة قد لا يكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا فإني أحب أن أوضحها باختصار، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن حض على مصافاتهم ومصادقتهم[١] . والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وقد أثنى[٢] عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقا ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٤٦: العنكبوت]»[٣] .

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول اليهود تناولهم من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿بِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا[٤] ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾. ولي كلمة أخيرة من الوجهة الدينية، فإن اليهود يقولون عن فلسطين: إنها أرض الميعاد.. ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا في يوم القيامة معنا!!!!!»[٥، ٦] .

وهذه مخالفة صريحة للشرع، ولا أظن أن أحدًا يوافق أن القرآن أثنى على اليهود، وحث على مصادقتهم وأن خلافنا معهم ليس في العقيدة والدين!!!

□ أما في تصوفه فمنهج الأستاذ حسن ـ رحمه اللَّه ـ لم يخل من غبار

---

(١) في أي آية هذا الحض؟!

(٢) هل في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ثناء!!!

(٣) ولم ينظر الشيخ إلى بقية الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾.

(٤) هل الوجهة القانونية في قوله: ﴿وبصدهم عن سبيل اللَّه كثيرا﴾!!!!.

(٥) لا وألف لا، لا نحب هذا فإن المرء يُحشر مع من أحب.

(٦) «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ... رؤية من الداخل» للأستاذ محمود عبدالحليم (١/ ٤٠٩، ٤١٠) ـ دار الدعوة بالإسكندرية.

التصوف غفر اللَّه له[١].

❑ وكذلك يؤخذ عليه قوله: «الإلهام، والخواطر، والكشف والرؤى، ليست من أدلة الأحكام، ولا تعتد إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

فمفهوم كلامه أنها إذا لم تصطدم بأحكام الدين ونصوصه فيعتد بها من أدلة الأحكام وهذا باطل.

❑ وقوله في الأصل الثاني عشر أن «البدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان»[٢].

والمطالع في كتب أهل العلم المصنفين في البدع تجدهم يدخلون في الأنواع المذكورة بدعا تخرج صاحبها عن الملة «كبدعة إسقاط التكاليف».

غفر اللَّه للبنا وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول اللَّه ﷺ، ولكنا لا نغمط قدر الرجال..

*** الدين النصيحة:**

اعتراف كبار الإخوان بالتقصير في تصحيح العقيدة:

لقد انتبه بعض قادة الإخوان إلى خطورة الإهمال أو التقصير في جانب العقيدة في دعوتهم، فصرّحوا بذلك أداءً للأمانة، وتفاديًا للأخطاء التي حصلت في تربية الشباب في الماضي.

---

(١) انظر «رسائل البنا» (ص٣٨٥).

(٢) انظر «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ ـ دار الاعتصام (ص٥٣، ٦٠) ففيهما الرد الشافي.

❑ قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه اللّه ـ:

«وبعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين، ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام أصبح واضحًا في تفكيري أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية، وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية..

.. ولا بد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة، وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحاديث السياسية الجارية، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته، وتريد أن تحكم به.

هذا الظرف كان يحتّم عليّ أن أبدأ مع كل شاب، وأسير ببطء وحذر من ضرورة فهم العقيدة الإسلامية فهمًا صحيحًا قبل البحث عن تفصيلات النظام، والتشريع الإسلامي. وضرورة عدم إنفاق الجهد في الحركات السياسية المحلية الحاضرة في البلاد الإسلامية، للتوفر على التربية الإسلامية الصحيحة لأكبر عدد ممكن. وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها بحكم اقتناع وتربية قاعدة في المجتمع ذاته؛ لأن المجتمعات البشرية اليوم بما فيها المجتمعات في البلاد الإسلامية قد صارت حالة مشابهة كثيراً، أو مماثلة لحالة المجتمعات الجاهلية يوم جاءها الإسلام، فبدأ معها من العقيدة والخلق، لا من الشريعة والنظام.

واليوم يجب أن تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ منها

الإسلام وأن تسير في خطوات مشابهة مع مراعاة بعض الظروف المغايرة»[١].

❑ قال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي، بعدما نقل كلام سيد قطب هذا:

«رحم اللَّه سيد قطب، لقد نفذ من دراسته إلى عين الحق والصواب ويجب على الحركات الإسلامية أن تستفيد من هذا التقرير الواعي الذي انتهى إليه سيد قطب عند آخر لحظة من حياته بعد دراسة طويلة واعية. لقد وصل في تقريره هذا إلي عين منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٢].

❑ قال الأستاذ محمد قطب في كتابه «واقعنا المعاصر»[٣] ـ وكأنه يفسّر

---

(١) جريدة المسلمين الدولية (المسلمون) السنة الأولى، العدد الثالث، الصادر في يوم السبت الموافق ٤/ جمادي الآخرة ١٤٠٥هـ. (٦ ـ ٧) حلقة من سلسلة مقالات تحت عنوان (لماذا أعدموتي؟».

(٢) «منهج الأنبياء» (ص١٣٩) للشيخ ربيع بن هادي المدخلي.

(٣) كتب الدكتور محمد حكمت تعريفًا بكتاب «واقعنا المعاصر» تحت عنوان «قراءة في كتاب واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب» في مجلة المجتمع الكويتية (السنة التاسعة عشرة، العدد ٨٧٠) فقال:

«هذا هو آخر كتاب يصدره المفكر الإسلامي محمد قطب، وقد أفرغ فيه خلاصة فكرية ناضجة، وتجربة إسلامية غنية تصف واقع المسلمين اليوم، وتحلل جذور المشكلات التي يعانون منها. وقد قام المؤلف بتشخيص خطر الانحراف الذي أصاب المجتمع الإسلامي، وبدأ الهبوط به عن الذروة العليا التي كان عليها جيل الصحابة والخلفاء الراشدين. ثم حلّل آثار هذا الانحراف الذي طرأ على المجتمع الإسلامي.

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة بما تشكله من آمال كبار، وما يعترض طريقها من مشكلات إلى أن ينتهي بنظرة إلى المستقبل. كل ذلك في عرض مفصّل شيّق، وبأسلوب رصين معتدل. وهو، وإن فصل بحكم المعايشة في تجربة مصر في هذا المجال، إلا أن ما ينطبق على مصر ينطبق على كثير من البلدان العربية والإسلامية سواء على الصعيد الإسلامي أو على الصعيد العلماني. ويقع هذا الكتاب النفيس في خمسة فصول..».

رأي أخيه في الاهتمام بجانب العقيدة:

«لقد كان العمل الذي قام به حسن البنا عملاً ضخمًا يشبه أن يكون إعادة بناء أمة..

لقد كان حال هذه الأمة كجدار يريد أن ينقضّ.. فأقامه[١].

ولكن هذا البناء الضخم الذي أقامه كان يشتمل على ثغرات تعطي تأثيراتها بصور شتى في خط السير.. وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبنا العظيم في بداية السير، إلا أنها بدت له واضحة فيما بعد قبيل مقتله ـ كما سيجيء ـ وإن كان لم يمهل لترسيخها في قلوب أتباعه.

ـ كانت الثغرة الأولى: الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه[٢]..

ـ وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتمّ بناء الأعمدة الراسخة بالمواصفات المطلوبة، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب، سواء في الساحة الداخلية، أو في ساحة المعركة في فلسطين[٣].

❑ وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع، وفي التحرّك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب، حدث كذلك في عملية البناء ذاتها. فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة، بل تجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب..

لقد اعتبرت قضية العقيدة قضية بديهية، وقضية منتهية.. وكان هذا.. مبالغة في إحسان الظن، وأثبتت الأيام فيما بعد أنه في حاجة إلى مراجعة شديدة. وأن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها،

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤١٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤١١).

(٣) المصدر السابق (ص٤١٧).

وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن الجماهير، بل غاب عن كثير[١] من الدعاة أنفسهم في غربة الإسلام الثانية التي أخبر عنها رسول اللَّه ﷺ حين قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[٢].

*** منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه:**

وصل الأستاذ محمد قطب بهذا التحليل المرحلي الدقيق، والنظر الواسع العميق في دعوة الإخوان، إلى أهمية العقيدة، وترسيخها في أذهان الشباب أولاً وقبل كل شيء، بحيث تُدَكُّ قاعدتُها دكًا متينًا، لا يتأثر برواسب البيئة وعواصفها وتقاليدها وعاداتها.

وهذه هي «نقطة البدء اللازمة» في الدعوة، ولا يجوز تجاوزها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب ظنًا بأن المجتمع مسلم لا يحتاج إلى مراجعة في عقيدته. وهذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه تعالى»[٣].

فالدعوة التي تريد بحق منهج الأنبياء لا بد أن تنقي عقيدة أفرادها من رواسب البيئة وتهويلات أهل البدع والأهواء حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنة كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

ولا يمكن إعادة مجد المسلمين المفقود، واسترداد حقوقهم المغصوبة في مشارق الأرض ومغاربها إلا بالعودة إلى الكتاب والسنّة عقيدة وعملاً، ومنهجًا وسلوكًا.

وتربية الناس على عقيدة أهل السنة والجماعة مثلما حدث في دعوة

---

(١) وما أمر التلمساني والغزالي وسعيد حوى وعبدالمتعال الجابري ومحمد حامد أبو النصر وغيرهم عنكم ببعيد.

(٢) «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (ص٤١٩) ـ دار الشروق.

(٣) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح الدين مقبول (ص٣٢٦ ـ ٣٢٩).

الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة واهتمام علمائها ودعاتها بغرس عقيدة السلف. . هذه من لم تكن واضحة في دعوة الشيخ حسن البنا غفر اللَّه له. ولذلك وقع كبار دعاتها بل الشيخ البنا نفسه فيما خالف عقيدة السلف في بعض أقواله، مثلما ذكرنا من قبل من قوله في التوسل، وذهابه إلى تفويض المعنى في الأسماء والصفات وقوله: أن هذه عقيدة السلف وهذا خلاف الحقيقة، وعدم تمحيصهم لمسائل الولاء والبراء.

*** وتعال معي إلى هذه الحقائق:**

«احتفل الإخوان المسلمون بمرور عشرين عامًا على إنشاء الجماعة وفي هذا الحفل خطب حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين خطبة قال فيها:

«وليست حركة الإخوان موجهة ضد أي عقيدة من العقائد أو دين من الأديان أو طائفة من الطوائف، إذ أن الشعور الذي يهيمن على نفوس القائمين بها أن القواعد الأساسية للرسالات جميعًا قد أصبحت مهددة الآن بالإلحادية، وعلى الرجال المؤمنين بهذه الأديان أن يتكاتفوا ويوجهوا جهودهم إلى إنقاذ الإنسانية من هذا الخطر، ولا يكره الإخوان المسلمون الأجانب النزلاء في البلاد العربية والإسلامية، ولا يضمرون لهم سوءًا حتى اليهود المواطنين لم يكن بيننا وبينهم إلا العلائق الطيبة»[1].

وقبلها عام ١٩٤٦ اختطب أمام لجنة أمريكية بريطانية بشأن قضية فلسطين فقال:

«. . والناحية التي سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا فإني أحب أن

(١) «قافلة الإخوان» للسيسي (ص١/٣١١) ـ كان هذا الاحتفال وهذه الخطبة في (٥/٩/١٩٤٨م).

أوضحها باختصار، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ونحن حين نعارض بكل قوة، الهجرة اليهودية، نعارضها لأنها تنطوي على خطر سياسي، وحقنا أن تكون فلسطين عربية».

❑ وسُئل سماحة الشيخ: عبدالعزيز بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس إدارة الافتاء والبحوث العلمية سابقًا عن هذا الكلام فأجاب ـ رحمه اللَّه ـ:

ما حكم الشرع فيمن يقول: إن خصومتنا مع اليهود ليست دينية وقد حث القرآن على مصافاتهم ومصادقتهم، وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وحينما أراد القرآن أن يتناول قضية اليهود تناولها من وجهة اقتصادية وسياسية فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا...﴾ إلى نهاية الآية.

ما حكم الشرع في هذه المقولة يا شيخنا؟

❑ أجاب سماحة الشيخ بقوله:

«هذه مقالة باطلة خبيثة، اليهود من أعدى الناس للمؤمنين، هم من أشر الناس، بل هم أشد الناس عداوة للمؤمنين مع الكفار كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فاليهود

والوثنيون هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

وهذه المقالة مقالة خاطئة ظالمة، قبيحة، منكرة، . . والدعوة إلى اللَّه بالحسنى ليست خاصة باليهود ولا بغيرهم، بل الدعوة إلى اللَّه مع اليهود ومع الوثنيين ومع الشيوعيين ومع غيرهم، يقول اللَّه جلَّ وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. هذا عام للكفار ولغير الكفار.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ليس خاصًا بهم، ولكن من باب التنبيه على أنهم وإن كانوا يهودًا أو نصارى فإنهم يجادلون بالتي هي أحسن؛ لأن هذا أقرب إلى دخولهم في الإسلام وإلى قبولهم الحق، إلا إذا ظلموا، . . ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، الظالم له ما يستحق من الجزاء.

فالحاصل: أن الدعوة بالتي هي أحسن عامة لجميع الكفار ولجميع المسلمين. الدعوة بالتي هي أحسن، ليست خاصة باليهود ولا بالنصارى ولا بغيرهم.

فهذا الكلام الذي نقلته عن هذا الشخص، هذا غلط.

نسأل اللَّه للجميع الهداية»[1].

❑ وكذلك سُئل الشيخ السؤال التالي:

هل يكفر من يدخل كنائس النصارى، ويحترمهم، ويقول لهم: يا سماحة البابا، ويا قداسة البابا، ويقول لهم: يا صاحب السيادة لحاخام اليهود، ويقول: إنه ليس بيننا وبين اليهود أية عداوة دينية، بل القرآن حث على حبهم ومصافاتهم، أنبئونا عن ذلك جزاكم اللَّه خيرًا؟

(١) نقلاً عن شريط مسجل بتاريخ (٢٨/ ٧/ ١٤١٢) هـ للشيخ عبدالعزيز بن باز.

❑ فأجاب:

«هذا جهل كبير فلا يجوز هذا الكلام، لكنه لا يكون ردة عن الإسلام عندما يسلم عليه أو يدخل عليه إنما معصية. أما إذا قال: ليس بين الإسلام وبين اليهود شيء فهذا كفر وردة، واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾ فبيننا وبينهم عداوة عظيمة، فمن يقول: إن الدين واحد ولا بيننا وبينهم عداوة فهذا جاهل مركب، وضال مضل كافر فالذي بيننا وبينهم العداوة، واليهود من أكفر الناس وأضلهم وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين»[1].

❑ يقول محمد الغزالي:

«والواقع أن المسلمين ـ كأصحاب المثل ـ تطغى عليهم طيبة القلب، وصفاء الطوية، فينشدون السلامة ويحسنون الظن، ثم يفاجئهم ما ليس في الحسبان فيعلمون أنهم مهما أحبوا مكروهين.

* ومن ثم يقول اللَّه لهم: ﴿**هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**﴾.

ومع ذلك التأريخ الساق، فإننا يجب أن نمد أيدينا وأن نفتح آذاننا وقلوبنا إلى كل دعوة تؤاخي بين الأديان وتقرب بينها، وتنتزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق.

إننا نقبل مرحبين على كل وحدة توجه قوى المتدينين إلى البناء لا الهدم، وتذكرهم بنسبهم السماوي الكريم وتصرفهم إلى تكريس الجهود

(١) نقلا عن مجلة «الدعوة». العدد رقم (١٤٠٢) وتاريخ (١٧ صفر ١٤١٤هـ).

لمحاربة الإلحاد والفساد وابتكار أفضل الوسائل لرد البشر إلى دائرة الوحي[١] بعد ما كادوا يفلتون منها إلى الأبد»[٢] .

❑ **أقول**: لم يستفد الغزالي من توجيه اللَّه للمسلمين في كتابه الحكيم ولم يستحضر آيات الولاء والبراء التي تجعل من يتولى اليهود والنصارى فهو منهم ـ ولو في أقل من الصورة التي يدعو إليها الغزالي وأصغر منها ـ فمتى دعا القرآن والسنة أو الصحابة أو علماء الإسلام ـ عياذًا باللَّه ـ إلى هذه الأخوة بين أهل الديانات.

وإلى هذه الوحدة التي لا قدوة للغزالي فيها غير الماسونية الملحدة.

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقـري ما شئت أن تنقـري

*** فيا غربة الإسلام؟!**

❑ وقال مصطفى السباعي في معركة الدستور[٣] :

اعتراض الطوائف المسيحية:

يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

١ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام، أن أحكام الإسلام ستطبق على المسلمين والمسيحيين، ولما كانت للمسيحيين عقائد وأحكام وأحوال شخصية تختلف عن الإسلام، **فكيف يجبرون على أحكام الإسلام؟!**

❑ وهذا الفهم خاطئ من نواح عدة، أهمها: **أن الإسلام يحترم المسيحية**

---

(١) يبدو أن الغزالي يرى أن الرجوع إلى اليهودية والنصرانية المحرفتين رجوع إلى دائرة الوحي.

(٢) كتاب «من هنا نعلم» (ص١٥٠).

(٣) «مجلة حضارة الإسلام» ـ العدد الخاص بالحديث عن حياة السباعي (ص١١٧ ـ ١٢٢).

كدين سماوي ويترك لأهلها حرية العقيدة والعبادة دون أن يتدخل في شئونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي من الأحكام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم، وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي بين أيدينا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منذ عصر الإسلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم، وأحوالهم الشخصية لم تتعرض لها دولة ولا حكومة، في الوقت الذي كان الحكم فيه للإسلام خالصًا، فكيف يتوهم الآن أن يطبق عليهم أحكام تخالف دينهم ونحن في دولة برلمانية شعبية الحكم فيها للشعب ممثلاً في نوابه المسلمين والمسيحيين؟

ونزيد على ذلك أنه مع احترام الإسلام لكل ما ذكرناه فنحن لم نكتف بذكر هذه في الدستور بل اقترحنا أن تنص على احترام الأديان السماوية وقدسيتها واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الدينية، فكيف يخطر في البال بعد هذا أن هنالك خطرًا على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟!

٢ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر نظرًا يختلف عن اتباع الدين الرسمي، وهذا خطأ بالغ أيضًا، فليس الإسلام دينًا معاديًا للنصرانية حتى يكون النص عليه عداء لها، بل هو معترف[1] بها ومقدس لسيدنا المسيح عليه السلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعًا ومنهم عيسى

(١) ما هذا الاعتراف والله يقول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهل يجوز هذا الربط بين أمة كافرة بالله وبين رسول كريم؟!

عليه السلام فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟!

أوليس النص على أن الإسلام دين الدولة[١] الرسمي يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام معترفًا بها ومحترمًا لها؟

وأما توهم الانتقاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟

أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعًا، **والدستور سيكفل حرية العقائد للمواطنين جميعًا؟**

أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الدولة حقًّا أكثر من المسيحي، والدستور سينص على تساوي المواطنين جميعًا في الحقوق والواجبات[٢] ؟

إني سأضع أمام القراء وأمام أبناء الشعب جميعًا نص المادة المقترحة في هذا الشأن ليروا بعد ذلك أي خوف منها وأي غبن يلحق المسيحية فيها.

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

إني أسأل المنصفين جميعًا وخاصة أبناء الطوائف الشقيقة: إذا كانت المادة التي تنص أن دين الإسلام هي التي تتضمن هذه الضمانات كلها، فأين الخوف،

(١) نعوذ باللّه من هذه التقول على الإسلام، كيف تكون النصرانية المحرَّفة إلى الكفر والوثنية دين رسمي للدولة الإسلامية. إن كانت دولة السباعي كذلك فهي دولة مرتدة.

(٢) هذا الكلام فيه افتراء كبير على اللّه وعلى الإسلام ومصادمة لنصوص كثيرة في القرآن والسنة ولما علمه وقرره علماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم، فأي تحريف يفوق هذا التحريف عياذًا باللّه؟

وأين الغبن، وأين الامتياز للمسلمين وأين الانتقاص لغيرهم؟»[1] ا.هـ.

* ويؤخذ عليه رحمه اللَّه صوفياته:

فقد قال أخوه عبدالرحمن البنا: «أنه حين يهلّ هلال ربيع الأول كنا نسير في موكب مسائي كل ليلة حتى ليلة الثاني عشر ننشد القصائد في مدح الرسول وكان من القصائد المشهورة في هذه المناسبة المباركة.

صلى الإله على النور الذي ظهرا ... للعالمين ففاق الشمس والقمرا

كان هذا البيت تردده المجموعة ينشد أخي وأنشد معه:

هذا الحبيب مع الأحباب قد حضرا ... وسامح الكل فيما قد مضى وجرا

لقد أدار على العشّاق خمرته ... صرفًا يكادُ سناها يذهب البصرا

يا سعد كرر لنا ذكر الحبيب لقد ... بلبلت أسماعنا يا مطرب الفقرا

وما لركب الحمى مالت معاطفه ... لا شك أن حبيب القوم قد حضرا»[2]

❑ وفي هذا من الشركيات ما فيه ونسبة المغفرة إلى رسول اللَّه ﷺ.

وقال أيضًا الأستاذ عبدالرحمن البنا: «وعقب صلاة العشاء يجلس أخي البنا إلى الذاكرين من جماعة الإخوان الحصافية وقد أشرق قلبه بنور اللَّه فأجلس إلى جواره نذكر اللَّه مع الذاكرين وقد خلا المسجد من أهل الذكر وخبا الصوت إلا ذبالة من السرج وسكن الليل إلا همسات من الدعاء أو ومضات من ضياء وشمل المكان كله نور سماوي ولفه جلال رباني وذابت الأجسام وهامت الأرواح وتلاشى كل شيء في الوجود وانمحى وانساب صوت المنشد في حلاوة وتطريب.

---

(١) «العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم» للشيخ ربيع المدخلي (ص٦٤ ـ ٧٠) ـ مكتبة الفرقان.

(٢) «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» لجابر رزق (ص٧١ ـ ٧٢).

اللَّه قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمالِ
فجميع ما في الكون إن حققته عدم على التفصيل والإجمالِ»[١]

❑ وهذا الكلام لا يحتمل شرعًا وعقلاً غير وحدة الوجود أو وحدة الشهود.

❑ ومنها محاضرته في مشهد السيدة زينب بمناسبة حفل العام الهجري، وعدم ذكره للشرك الأكبر ولا نهيه عنه، مع أنه يرى من يتطوفون بالقبر ويسألون من صاحبته ما لا يُطلب إلا من اللَّه»[٢] .

❑ ومنها مشيه إلى قبر الدسوقي وسنجر عشرين كيلاً ذهابًا وعشرين كيلاً رجوعًا سيرًا على الأقدام[٣] .

❑ ومنها ثناؤه على الميرغني المعروف بوحدة الوجود[٤] .

---

(١) «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» (ص٧١ ـ ٧٢).

(٢) «الطريق إلى الجماعة الأم» لعثمان (ص٢٦).

(٣) قال حسن البنا في مذكراته (ص٣٣): «وكنا في كثير من أيام الجمع التي يتصادف أن نقضيها في (دمنهور) نقترح رحلة لزيارة الأولياء القريبين من (دمنهور) فكنا أحيانًا نزور دسوقي فنمشي على أقدامنا بعد صلاة الصبح مباشرة بحيث نصل حوالي الساعة ٨ صباحًا فنقطع المسافة في ثلاثة ساعات وهي نحو عشرين كيلو مترًا ونزور ونصلي الجمعة ونستريح بعد الغداء ونصلي العصر.

وقال في الصفحة نفسها: «وكنا أحيانًا نزور عزبة النوام حيث دفن في مقبرتها سيد سنجر من خواص رجال الطريقة الحصافية».

(٤) انظر «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب لمحمد بن علي الصومعي (ص٢٨) الهامش (١) ـ طبع دار الآثار ـ وفيها:

في ١٩٤٨/٦/٩م زار القاهرة شيخ الطريقة المرغنية الختمية فاحتفل المركز العام للإخوان به فتكلم البنا في الحفل فقال: إن دارَ الإخوان لتسعد وتأنس أعظم الإيناس إذ تستقبل هذه القلوب الطاهرة والنفوس الكريمة أعلام الجهاد وأبطال العروبة وأقطاب قادة الإسلام.. لعل الكثيرين أيها السادة لا يعلمون أننا نحن الإخوان مدينون للسادة المرغنية =

❑ ومنها سعيه الدءوب للتقريب بين السنة والرافضة[١] .

وهذا المسلك والمنحى للأسف هو منحى المودودي غفر اللَّه للجميع.

❑ يقول أبو الأعلى المودودي: «إن ثورة الخميني ثورة إسلامية، والقائمون عليها هم جماعة إسلامية، وشباب تلقوا التربية الإسلامية في الحركات الإسلامية.

وعلى جميع المسلمين عامة، والحركات الإسلامية خاصة أن تؤيد هذه الثورة كل التأييد، وتتعاون معها في جميع المجالات»[٢] .

❑ ولا يفهم مطلقًا أن جماعة الإخوان ضمت جمعًا من الأقباط ولا يقبل هذا، وهذا متواتر على لسان قادة الجماعة ففي كتاب «دعوة الإخوان المسلمون في الميزان» وفي مجلة «لواء الإسلام» العدد الأول السنة الخامسة والأربعون رمضان ١٤١١هـ (ص٣٩) قالت المجلة: «والإمام حسن البنا عندما شكّل اللجنة السياسية العليا للإخوان المسلمين كان ضمن أعضائها ثلاثة من المسيحيين هم الأساتذة: ١ ـ لويس أخنوخ. ٢ ـ وهيب دوس. ٣ ـ ثابت كريمز[٣] .

= بدين المودة الخالصة والحفاوة البالغة التي غمرونا بها من قبل ومن بعد.. اهـ.
قافلة الإخوان لعباس السيسي (ص١٥٠) بواسطة الطريق إلى الجماعة الأم (ص٢٧).

(١) وعلى نفس الطريق سارت الجماعة فقد جاء في «مجلة الدعوة» في (١٩٧٩/٢٥) «دعاء التنظيم العالمي للإخوان المسلمين قيادات الحركات الإسلامية في كل من تركيا وباكستان والهند وإندونسيا إلى اجتماع أسفر عن تكوين وفد توجه إلى طهران وقد أكّد الوفد من جانبه أن الحركات الإسلامية ستظل على عهدها في خدمة الثورة في إيران.. انظر «الطريق إلى الجماعة الأم» (ص١٠٥).

(٢) «ملحوظات وتنبيهات» لعبداللَّه بن صلفيق الظفيري (ص٣٤) ـ دار المنهاج نقلاً عن «الشقيقان» (ص٣).

(٣) «الرد الشرعي المعقول على المتصل المجهول» لأحمد بن يحيى النجمي المطبوع مع «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب» (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

❑ ويعاب على الجماعة أنها ضمت خليطًا من أصحاب الاتجاهات فمنهم السلفي ومنهم المعتزلي والصوفي والأشعري..

❑ يقول محمد سرور زين العابدين الذي قضى في المنهج الإخواني عقدًا من الزمن: «لم يعد عقلي يتصور وجود جماعة واحدة فيها السلفي، والصوفي، والأشعري، والخارجي، ودعاة الاعتزال والعقلانية، وغير ذلك من الاتجاهات المختلفة المتباينة. لقد سئمت من سياسة التجمع على أساس غير سليم، وصرت أعتقد فشل سياسة وتخطيط هذا الخليط من الخلائق، وإن زعموا أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى. ومللت من ترداد من حولي: «ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه». كيف يعذر بعضنا بعضًا في اختلاف التضاد»[1].

❑ قال البنا ـ رحمه اللَّه ـ: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»[2].

وقد سُئِل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه اللَّه ـ عن هذه المقالة:

«ونص السؤال ما يلي: ما هو قولكم في هذه العبارة: فلنتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه؟

فأجاب: أما الجزء الأول منها فصحيح يجب أن نتعاون فيما اتفقنا عليه.

وأما الثاني ففيه تفصيل: إن كان للاختلاف مساغ في الشرع فإنه يجب علينا أن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، مثال ذلك: رجلان أحدهما يرى

(١) انظر المصدر السابق (ص٨٦ ـ ٨٧).

(٢) «مجموع رسائل الشيخ حسن البنا».

أن لحم الإبل ينقض الوضوء والثاني يرى أن لحم الإبل لا ينقض الوضوء كلاهما مجتهد كلاهما أداه اجتهاده إلى ما رأى فيجب علينا أن يعذر بعضنا بعضًا.. أما إذا كان الاختلاف لا مساغ له في الشرع فإنه لا عذر فيه كاختلاف أهل البدع مع أهل السنة فإن خلافهم هذا ليس لهم فيه عذر لأن الواجب عليهم اجتناب البدع لقول النبي ﷺ: «**اياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله**». اهـ. نقلاً من شريط «أهمية الدعوة إلى اللَّه» رقم٢.

❑ ونصيحة أخيرة لكل العاملين بساحة الدعوة إلى اللَّه عز وجل.. العلم العلم به تسلم [قال الشيخ مقبل الوادعي ـ رحمه اللَّه ـ في درسه بتاريخ ٣٠ صفر عام ١٤١٧هـ: «قرأت على الشيخ ابن باز قول حسن البنا: إن الحكومة عليها أن تأخذ من أموال الأغنياء وتعطي الفقراء وتعاوض الأغنياء بما هو أجدر!! فقال: هذا ليس صحيحًا، أن تعاوض الدولة الأغنياء ولا تأخذ أموال الأغنياء ثم همس في أذني همسة فقال: حسن البنا ما هو عالم لكن متحمس للدين على غير علم» اهـ.

❑ وقال الشيخ الألباني كما في شريط «صوفية حسن البنا والقرضاوي»: البنا ـ رحمه اللَّه ـ لم يكن عالمًا ولكن عنده عاطفة إسلامية وله كتابات خالف فيها السنة والمنهج السلفي» اهـ][1].

*** من باب إحقاق الحق:**

❑ يقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في كتابه «أبو الحسن الندوي الوجه الآخر» من كتاباته (٣/ ٥٦٠): «لا شك أن الأستاذ حسن البنا نشأ على التصوف، وكان يداوم على الأوراد والأذكار على الطريقة الحصافية إلى

(١) «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب» (ص٥٢).

آخر حياته إلا أنه كان يرى أن الفكرة الصوفية جاوزت حد علم السلوك والتربية إلى تحليل الأذواق والمواجيد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف، والدعوة إلى الزهد والتقشف.. إلى أن قال: ولكن هذا الخلط أفسد كثيرًا من هذه الفوائد وقضى عليها.

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير في إصلاح هذه الطوائف من الناس.. وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ من العلماء الصالحين لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها، وقيادة هذه الجماهير قيادة صالحة»[1].

ويقول البنا ـ رحمه اللَّه ـ في «مذكرات الدعوة والداعية» (ص١٣٢) ـ عن الصوفية: «حضر إلى الإسماعيلية.. من القصاصين وهو يدعو إلى الطريقة، وله أفكار خاصَّة تنافي آمالي الإسلامية.. لقد آن الأوان الذي أعتزل به عن كلِّ هذه الدعاوى المشتبهة، وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامي، الذي يتلخَّص في الرجوع إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف» اهـ.

*** الشيخ محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة التي صانت جانب التوحيد في مصر، ومربّي العلماء الربانيين:**

الشيخ محمد حامد الفقي تلميذ حكيم الإسلام رشيد رضا، ومؤسس جماعة أنصار السنة في مصر عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) بمدينة القاهرة، ثم

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ حسن البنا (ص٣٠ ـ ٣١).

توسعت أعمالها ونشاطاتها إلى بلاد السودان فيما بعد.

❑ وكان الشيخ الفقي من خريجي «الأزهر»، بدأ دعوته إلى الكتاب والسنّة (الدعوة السلفية)، في أثناء فترة دراسته بالأزهر. وبعد عمل عظيم وعمر زاهر توفي إلى ـ رحمة اللَّه تعالى ـ في سابع رجب ١٣٧٨هـ. رحمه اللَّه تعالى[١].

❑ وكان ـ رحمه اللَّه ـ علمًا وسدًّا منيعًا في محاربة الشركيات والوثنية التي كانت ولا تزال تشمل أطرافًا من البلاد الإسلامية في مصر وغيرها، وكان له ولأنصار السنة الدور الرئيسي في التحذير من عبادة القبور والدعوة إلى التحرر في الفقه من ربقة التقليد.

ومن هذه الجماعة الطيبة الذكر خرج العلماء الربانيون الذين حملوا جانب التوحيد نذكر منهم فضيلة الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر، والعلامة محمد عبدالرزاق حمزة والشيخ محمد عبدالظاهر أبو السمح وعنهما يقول الشيخ رشيد: «وهما من تلاميذي»[٢]، والشيخ عبدالرحمن الوكيل والشيخ أبو الوفا درويش، والعلاّمة الشيخ خليل هراس والعلامة عبدالرزاق عفيفي والشيخ محمد صفوت نور الدين والشيخ صفوت الشوادفي.

❑ بيَّن العلامة الشيخ محمد حامد الفقي ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «جماعة أنصار السنّة المحمدية: دعوتها وأهدافها» ما يلي:

١ ـ دعوة الناس إلى التوحيد الخالص.

٢ ـ إرشاد الناس إلي أخذ دينهم من نبعيه الصافيين، صريح الكتاب، وصحيح السنّة.

٣ ـ إرشادهم إلى أن نصوص الكتاب والسنّة لا محيد عنها البتّة.

---

(١) «مجلة الهدي النبوي» المجلد ٢٣ (ص٦٩ ـ ٧٣).

(٢) انظر «رشيد رضا» لشكيب أرسلان (ص٧٥٦).

٤ ـ الدعوة إلى حب رسول اللَّه ﷺ حبًّا صادقًا صحيحًا يحمل على اتخاذه مثلاً أعلى.

٥ ـ الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور.

٦ ـ محاربة الخرافات والعقائد الفاسدة.

٧ ـ إرشاد الناس إلى أن حياتهم الدنيوية والأخروية مرتبطة كل واحدة منها بالأخرى أوثق ارتباط.

٨ ـ إرشاد الناس إلى أن اللَّه تعالى مدح الخير ووعد فاعله بالمغفرة، وذمّ الشرّ، وتوعَّد فاعله.

٩ ـ إرشادهم إلى أن الفسوق والعصيان نتيجة لازمة لعدم إيمانهم باللَّه واليوم الآخر.

١٠ ـ إرشاد الناس إلى أن أوامر الدين ونواهيه هي رحمة بهم.

١١ ـ إرشادهم إلى أن الرسول ﷺ حرَّم تشريف القبور؛ لأنه ظلم يمقته اللَّه.

١٢ ـ إرشاد الناس إلى أن الحكم بغير ما أنزل اللَّه تعالى هلكة في الدنيا، وشقاوة في الآخرة.

١٣ ـ إرشاد الناس إلى أن موقفهم من صفات الرب سبحانه وأسمائه يجب أن يكون مطابقًا لموقف الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.

١٤ ـ إرشاد الناس إلى أن أصل الداء هو سماحهم للنساء بارتياد الملاهي، ودور السينما.

١٥ ـ إرشاد الناس إلى وجوب تمسكهم بالرجولة، لتظلَّ لهم القوامة على نسائهم.

❑ وكان للشيخ الفقي وأنصار السنة أكبر الأثر في فضح عقائد الصوفية الخربة مثل «وحدة الوجود» التي نادى بها ابن عربي شيخ الصوفية الأكبر

وكبريتهم الأحمر، والقول «بالحلول والاتحاد» وهو قول الحلاج، وابن الفارض صاحب التائية، والقول «بوحدة الأديان» كما قال الحلاج:

ألا أبلغ أحبائي بأني
ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتى
فلا البطحا أريد ولا المدينة[١]

❑ وقال ابن عربي: «فإياك أن تتقيَّد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي لصور المعتقدات كلها، فإن اللَّه تعالى أوسع وأعظم من أن يحصر عقد دون عقد فإنه يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾»[٢].

❑ وأزاح الشيخ الفقي الستار عن زندقة السهرودي وابن سبعين وعبدالكريم الجيلي وعقيدتهم الفاسدة، وبين خطأ الصوفية في «القضاء والقدر» وقولهم: «الرضا أن لا تسأل اللَّه الجنة ولا تستعيذ به من النار»[٣]، وقولهم: «لو أدخل اللَّه الخلائق كلهم الجنة، وأدخلني النار لكنت بذلك راضيًا»[٤]، وبيّن فساد توكلهم، وعدم ممارستهم للأسباب، وقولهم: إن بذل الأسباب، واتخاذ الوسائل مناف للتوكل، ومعارض للقدر.

❑ ووضح الفقي استخفاف الصوفية بعذاب اللَّه وثوابه كقول من قال: «الجنة هي الحجاب الأكبر؛ لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجنة، وكل من سكن

---

(١) «نشأة التصوف الإسلامي» للبسيوني (ص١٨٧).
(٢) «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للبقاعي (ص١٠٠).
(٣) «الرسالة القشيرية» للقشيري (ص٩٠).
(٤) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/٣٤٩).

إلى الجنة سكن إلى سواه فهو محجوب»[١] ، وقول القائل: «إن للَّه عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفأوها»[٢] .

❑ وقصرهم الجهاد على جهاد النفس فقط، والطوام التي أتوا بها في الأذكار والعبادات والبدع التي أحدثوها، والموالد التي شهدت رقصهم وفجورهم واختلاط الرجال بالنساء، وبناء الأضرحة.

❑ رحم اللَّه الفقي وبارك في جماعته، فلقد عدَّى المنحرفين عن منهج السلف وهديهم.

❑ انظر رحمك اللَّه إلى قول رياح القيس: «لا يبلغ الرجل منازل الصديقين حتى يترك زوجته، كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب»[٣] ، وانحرافهم عن هدي الإسلام في الزواج والجهاد، قال ابن تيمية:

«ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفجَّار وخفرائهم، حيث شهدوا القدر معهم، ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين»[٤] .

❑ وأوقف الشيخ الفقي عمره على فضح المصطلحات الصوفية وبيان عوارها من السماع، والكشف، والأضرحة والقبور، وتربية سر الهمة والاستسلام للشيخ، والتأثير والتصرف في الأكوان، والتوسل البدعي، والخلوة، والشطحات والدعاوى والعشق، والأقطاب، والأبدال، والمكاشفة والإشراق على الخواطر والفناء البدعي ووحدة الشهود، والسياحة في القفار

(١) «شطحات صوفية» لبدوي (ص ٢٠).
(٢) المصدر المذكور (ص٢١).
(٣) «نشأة التصوف الإسلامي» (ص١٥٨).
(٤) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ٤٩٩).

والبراري، وترك الجمع والجماعات والأعياد عمدًا، والفهم الخاطئ للزهد، وبعدهم عن هدي رسول اللَّه ﷺ وقد قال: «**تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب اللَّه وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض**»[1].

*** الدين النصيحة:**

والذي يؤخذ عمومًا على جماعة أنصار السنة هو حصرها الدعوة في بعض مجالات العقيدة دون شمولها لباقي المجالات، وهو ليس بعيب إن قال أصحابها نحن نهتم بكذا ونركز عليه لأننا رأينا أن هذا المرض هو الذي أقعد المجتمعات عن النهوض والتقدم، ونترك لغيرنا أن يصلح باقي المجالات التي لم نطرقها.

وتأثر بعضهم برشيد رضا في أمور خالف فيها عقيدة السلف مثل انكار بعضهم المهدي[2] وأنكر كثير منهم مسّ الجن للبشر وكتب الشيخ أبو الوفا درويش وهو من أساطين أنصار السنة كتابه «صيحة الحق» وفيه إنكاره لتلبس الجن بالمصروع. وإنكار بعضهم لسحر النبي ﷺ. ودعوة بعضهم إلى الاقتصار على البخاري ومسلم.

ويعاب عليهم تخاذلهم في قضية فلسطين وحرب ١٩٤٨م، وكان الأولى بهم وهم الدعاة إلى التوحيد أن يكونوا في الصدارة التي تولاها غيرهم. ولكن كما يقال: «إن الماء إذا بلغ القلتين لا يحمل الخبث» وهذه المؤاخذات مغفورة إن شاء اللَّه في بحر حسناتهم الجاري. وموردهم العذب الصافي الزلال.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة (٣/١٠٩، ١٤٨، ٥٣٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٦١)، و«صحيح الجامع» ٢٩٣٧٠).

(٢) انظر إلى ما كُتب في مجلة «التوحيد» إبان حادث الحرم سنة ١٤٠٠هـ.

* **الشيخ محمود أبو العيون فارس معركة إلغاء البغاء:**

كانت معركة البغاء من أشد المعارك وأقواها، وقد حمل لواء الدعوة إلى إلغائه الشيخ محمود أبو العيون، وسجل ـ رحمه اللَّه ـ أخطاء المجتمع ودعا إلى الإصلاح دعوة مستمرة لم تتوقف وكشف عن دور علماء الدين في هذا المجال واستهلها في سلسلة مقالات في الأهرام بدأها في ٢٠/ ١١/ ١٩٢٣.

رجال الدين من نصب نفسه لنفع الناس وهو عنهم مستغن لا يعمل رغبة في دنيا ولا يسكت رهبة من عقاب، فعله الحق، وقوله الصدق، إن قام بأمر اللَّه قام به، وإن أمر بشيء كان الزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، يبين لهم أن الدين يساير العلم ولا يأباه، وليس بينه وبين العقل عداء، وأن الميزة العليا للعقيدة الدينية هي ألا تتنافى مع نتاج العلم الصحيح وأن ترتكز على العقل السليم وتعتصم بالبرهان الحق.

لقد وضع اللَّه هذا الدين ليكون قانونًا منظمًا لجميع البشر وإرشادًا وتربية وتهذيبًا وصالحًا لكل الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة.

إن الإلحاد قد انتجع في نفوس أهل الجيل مكانًا خصبًا وظهرت طلائعه في كل مكان، في دور العلم والنوادي الأدبية والمحافل الخاصة، في الصحف والمجلات، في المؤلفات، والظاهرة الجديدة: الدعوة إلى طهارة الفطرة الدينية وقداسة الإيمان بقصد التشكيك ومناهضة التعاليم الدينية وزعزعة العقائد الصافية، وتحقيق مبادئ المدرسة الحديثة التي يزعمونها طليعة النهضة الجديدة إن الإلحاد الذي أساسه التشكيك حرب على الفضيلة وعلى الحق وعلى الإنسانية وعلى الأديان كلها.

فإذا لم تكن حياة الأمة ذاخرة بالحياء والعفاف وتصون الأقلام والألسن فإنها تعيش كما تعيش الأمم السادرة في الهمجية[1].

(١) الأهرام ٢٠/ ١١/ ١٩٢٣.

❑ وقال: «بين سمع الحكومة وبصرها يقام سوق للفجور وينفض سوق، وتذهب الأعراض ضحايا الشهوات والأطماع، وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الأمصار والقرى، طلائع وكتائب يجتلبون كل طفلة ومعصر وعانس وخود، بين سمع الحكومة وبصرها تتمرد الروح الخبيثة ويؤسس الزعيم (الغربي) مملكة منتظمة داخلها مفقود، وطالعها مولود، وهناك وفي سجون ذلك المستبد الظالم تخرج الفتيات العاملات، جليبات خزي، وأسيرات بغي، فيشهدون منظرًا مريعًا من أبشع ما رأى وسمع الناس، هنالك يمتهن الشرف وتزهق الإنسانية»[1].

❑ وقال: «إن ثورة مصر سنة ١٩١٩م قد تركت أثرًا بالغًا في آداب الأمة المصرية وأحلامها، ولكنا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز له بالتماثيل وتقيم له الأنصاب، ما كنا نود أن نأخذ من معناه كماله لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس واضمحلال في كل معاني الحياة الناهضة، تلك التي بذلنا في سبيلها مهجًا غالية ودماء ذاكية.

نقول إن ثورة ١٩١٩ التي طأطأ لها التاريخ إجلالاً وهومت لها الأمم إكبارًا وإعظامًا كانت في حياة مصر فجرًا كاذبًا لمع نوره في آفاقها كلسان الشمعة ثم خبا وأظلم، وها نحن ولاء في دياجير الظلم تائهين حيارى.

أجل نظرك مرة في الحدائق العامة وفي صالات اللهو ومسارح التمثيل وعلى شاطئ البحار وداخل الأكشاك المتناثرة وحولها في موسم الصيف، أجل نظرك في تلك الأسواق المأهولة، بأولئك الماجنين والماجنات، ثم خبرني ماذا بقي لمصر من شرف العفاف وحسن السمعة.

---

(١) الأهرام ١٩٢٦.

ثم هاجم الحكومة التي لم تأخذ درسًا من الجلادين والجلادات (علام وأبي الدهب وريا وسكينة وغير هؤلاء) وقال: وهذه حادثة الغربي ثالثة الأسافي وفضيحة العمر وسبة الدهر.

ثم توالت مقالاته يعرض فيها لجوانب المشكلة. ويعرض «للمذاهب الإباحية التي تهدد البلاد بالمحن والزرايا ـ في الدين والخلق، فتكثر الجنايات وتتكرر المؤامرات على اغتيال الأعراض وشرف البيوتات، وتساءل عما وضعته الدولة من مراقبة لصون الأعراض بعد حادثة الغربي».

وتساءل عما إذا كانت الحكومة (تجهل مواطن الموبقات والفسوق في كل شارع وفي كل حي وفي كل منتدى ظاهر وفي أطراف المدينة وأحشائها)، وتحدث عن الزعيم الغربي ـ الذي هزه لكتابة هذه المقالات ـ فصور «ما أذهب من شرف وكرامة وما أقام من ولائم وحفلات قصف ونكر ضمت من ضمت من أعاظم الرجال وأخطر السيدات وما شيد من معارض للفسوق يدعو إليها سائحي الأفرنج للتفرج على الممرات والفضائح بصور قبيحة كما يتفرجون على آثار الشرق ومدافن توت عنخ آمون».

وأشار إلى حالة شارع (كلوت بك) وانتشار بيوت الفساد فيه وحوانيت تعاطي المكيفات والحانات المرخص بها للأشربة، وقال: إن الحكومة ضعفت أمام سلطان الاستعمار الذي فرض عليها إباحة الزنا والترخيص بالمسكرات ولعب القمار وتغطية محاولات تجارة الرقيق في خطف البنات.

ثم قدم كشفًا بأماكن المنازل السرية بالعاصمة (١٧/ ١٢/ ١٩٢٣) وقال: إنها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين والتدليك والذهبيات المعدة للفجور، ونادي «الغوث الغوث. النجدة النجدة» وكشف عن أن المصابين بالأمراض التناسلية يبلغ ٨٢٠ ألف ـ وقال: إن هناك مليون إصابة في العام، وقال: إن الحكومة ترخص بالبغاء. ثم تهمل مرابة البيوت السرية

والآداب العامة.

❑ ونقل أبو العيون نصًّا من تقرير قسم اللوائح والرخص هو:

«أن الدول التي حرمت البغاء أو تجاهلته لم تفعل ذلك احترامًا للدين والآداب والرأي العام فقط بل لأنها رأت أيضًا أن الاعتراف به رسميًّا مفسدة للأخلاق وأنه مسبب للأمراض موجد لجريمة الاسترقاق مروج لتجارة الرقيق الأبيض».

ولم يتوقف محمود أبو العيون عند هذا الحد بل أنه أجرى استطلاعًا كاملاً عن «فضيحة» الغربي التي هزت الدوائر المختلفة وكانت رمزًا على مدى الخطر الذي وصلت إليه البلاد بنتيجة للغزو الغربي في ميدان الاجتماع.

وكشف عن شخصية (إبراهيم محمد محمود الغربي) الذي تعرض لإفساد الأخلاق بأن اعتاد تحريض الفتيات اللاتي لم يبلغن سن الثانية عشر سنة على الفجور والفسق. ووضعهن في منازل معدة للدعارة وعرضهن على المترددين لارتكاب الفاحشة معهن.

ثم وصف زيارته لهذه الشوارع والحارات (القذرة) لرؤيتها وقال: «رأيت ما لم أره من قبل، رأيت أسفل منظر وقع عليه نظري، لم أر سوقًا للأعراض مرخصًا بها من الحكومة مثل سوق الوسعة في القاهرة هناك، نساء لا عد لهن من جميع الألوان منهن السوداء والبيضاء والنحاسية اللون، جالسات على أبواب منازلهن ينادين بالعربية كل من يمر ليرينه رخصتهن المصرح بها من الحكومة».

❑ ووصف إبراهيم الغربي: «هذا الرجل ـ إذا شئت أن تقول بحق ـ هذا الشيطان، بأنه أشنع منظر تراه في مصر وقال: «وإني أعتقد أنه الرجل الوحيد من نوعه في العالم الذي يعلن عن مهنته صراحة وله ميزة تميزه عن زملائه فإنه شرهم».

فقلما تجد بين هولاء السياح من يغادر أرض الفراعنة قبل أن يرى إبراهيم الغربي. وجدنا منزل إبراهيم الغربي منارًا بالأضواء الكثيرة ووجدنا القاصرات المرخص لهن جالسات في مدخله، كان إبراهيم الغربي بينهم مرتديًا ملابس امرأة ملونة وجهه كما تفعل النساء رغم سواده. له جلد أسود لامع وعينان واسعتان يضع على رأسه طوقًا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وتجد زراعيه عاريتين إلى الكتف وبهما من الأساور الذهبية الثمينة عدد كبير، وقد أحصيت ما تحمله الذراع الواحدة منها فوجدت أنها أكثر من أربعة عشر صنفًا من الأساور، وكان حول رقبته عقد من الذهب، ويحمل في أصابعه خواتم عديدة ويضع في رجليه خلخالاً من الذهب ويلبس على جسمه ملابس مزركشة بالذهب والفضة والترتر مما يعكس الضوء فيبهر الأبصار، إنهم ينظرون إليه هناك كما لو كان شيئًا خارقًا للطبيعة، أو كما لو كان شخصًا مقدسًا، وسعيد هو الذي أتيحت له الفرصة أن يلمس جسمه وكثير من الوطنيين يجزمون بأنه إذا غضب على كائن من كان فجزاؤه الموت، وعندي أنه يجب ضرب هذا المخلوق بالكرباج في ميدان عام وأمام الجمهور يقولون إنه ذو ثروة طائلة ونفوذ واسع. وقيل لي: أنه نظرًا إلى نفوذه عرض اسمه على الخديو السابق من أجل أن ينعم عليه برتبة البكوية... ولم يتوقف «أبو العيون» عن الدعوة إلى إلغاء البغاء إلا بعد أن انبرت جريدة السياسة تقاومه وتسخر به، وهناك توقفت الأهرام عن نشر مقالاته، بعد أن كشف الستار عن فضائح هذه الجريمة وكشف عن شرور البغاء وحمل على الحكومة حملة نكرة.

ولم يلبث أن أرسل إلى البرلمان في أول جلسة من جلساته برقية يطالب بالغاء البغاء الرسمي، وقام بمحاولة ضخمة حين مر على وزراء الدولة وعظماء البلاد وكتابها المصلحين يستكتبهم رأيهم في البغاء، هنالك ازدادت حملة الصحف التغريبية عليه وقاومت دعوته بالشتم والمنابذة ونشرت له

المجلات صورًا كاريكاتورية قاسية، ووصفوه «بأنه مأجور وصنيعة ومشعوذ ودجال».

ثم لم يلبث أن عاود الحملة في يوليو ١٩٣٣م مستأنفًا الدعوة إلى محاربة البغاء بالدعوة إلى مطاردة محترفيه وإزالة مواخيره وهدم أسواقه النافقة في العواصم والأمصار.

ووصف البغاء بأنه «احتراف امرأة تبذل أعضاء جسمها للرجل في مقابل أجر معين، والإسلام دين الدولة الرسمي يحرمه ويعاقب عليه، والأديان كلها تضافرت على تحريمه. وقد راعى الشارع في ذلك صيانة المجتمع من الشرور والمفاسد التي تتنافى مع الآداب والأخلاق والصحة ونظام الأمن».

وبين أن أبلغ أضرار إباحة البغاء امتهانة لكرامة فريق من بني الإنسان، وردد ما ورد في تقرير عصبة الأمم سنة ١٩٢٧م عن تجارة الرقيق من أن مصر أصبحت ميدانًا حيويًا ومركزًا هامًا من المراكز الدولية.

وصور كيف أن الترخيص بالبغاء السري سهل على الشباب الاستمتاع بالمرأة من غير زواج، ودعا إلى سن قانون للزواج في سن معينة وتعليم الدين اجباريًّا في المدارس ومكافحة الأمراض السرية ودعا إلى إلغاء البغاء دفعة واحدة.

وكانت الحكومة قد اتخذت قرارًا في عام ١٩٣٢ لبحث موضوع البغاء وجرى اتصال اللجنة التي كونها الدكتور محمد شاهين وزير الصحة بمختلف الهيئات والطبقات للوقوف على وجهة نظرها وقد ظلت هذه اللجنة معطلة حتى عام ١٩٤١ عندما أعلنت توصيتها بإلغاء البغاء الرسمي ولم يتم ذلك إلا بعد عام ١٩٤٦[1].

(١) «تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين» (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) =

❑ وحارب ـ رحمه اللَّه ـ ميوعة الشباب وتخنثهم ووصفهم في الأهرام ٧/ ١/ ٣٤ بأنهم من الطراوة والميوعة بحيث لا يقدسون ماضيًا ولا يحفلون بمصير وأنهم يضيعون أوقات حياتهم في العبث والمجون وإن أفكارهم تصور الأوهام الفاسدة وألسنتهم تنطق بالألفاظ المستهجنة ونظراتهم خائنة. وإنه لا شيء أفعل للعصبية ولا أدرى بالمروءة ولا أخطر لكرامة الشعوب من تلك الإباحة الخاسرة.

* الشيخ بديع الزمان النورسي الكردي رائد الصحوة الإسلامية في تركيا الحديثة:

حجة الإسلام في تركيا الحديثة كما يسميه بذلك الدكتور محسن عبدالحميد أستاذ التفسير بجامعة بغداد. حمل هموم المسلمين منذ شبابه، ودحض الأفكار المنحرفة والفلسفات الجاحدة المناقضة له والغزو الفكري الجارف التي تعرض له منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري، بل قبله. ومحاولات التغريب المادية في السياسة والاقتصاد والإعلام. وسعى النورسي إلى البناء والتدرج والهدوء، والنفوذ المحكم إلى عقول المسلمين وقلوبهم دون صراخ عاطفي أو تهريج مدمر، أو صدمات فوقية، لم يكن الوضع الإسلامي يومئذ مهيئًا لها ويقوى فيها على مجابهة الأعداء الأقوياء في الداخل والخارج.

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بتليس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م). وتلقى علومه الدينية وبزّ فيها أقرانه، بحفظه للمجلدات الضخام وذاع صيته منذ شبابه

= لأنور الجندي (ص٣٠٣، ٣٠٦ ـ ٣٠٧) ـ دار الاعتصام، وكتاب «اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب» لأنور الجندي (ص٢٧٣ ـ ٢٧٤) ـ دار الاعتصام.

وكان ديدنه «لأبرهنن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها»[١].

❑ قدَّم ـ رحمه اللَّه ـ عريضة إلى السلطان عبدالحميد يطلب فيها فتح المدارس التي تعلّم العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء ـ بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه.

ثم يقابل السلطان وينتقد الاستبداد ونظام الأمن والاستخبارات لقصر «يلدز» مما أثار نقمة حاشية السلطان التي لا تمثل فكر السلطان[٢] فأحالوه إلى محكمة عسكرية، وأجالوه إلى الأطباء لفحص قواه العقلية، وأدخلوه مستشفى «طوب طاش» للمجاذيب.. وفحصه الأطباء وكتب الطبيب في تقريره: «لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان فمعنى ذلك أنه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد» وأرسلوه إلى وزير الداخلية وجرت بينهما المحاورة الآتية:

ـ الوزير: إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش، وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة، كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك.

❑ بديع الزمان: لم أكن أبدًا متسوّل مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضون عليّ سوى رشوة للسكوت.

ـ الوزير: إنك بهذا تردّ الإرادة السلطانية، والإرادة لا تردّ.

❑ بديع الزمان: إنني أردّ لكي يستاء السلطان ويستدعيني عند ذلك

(١) «بديع الزمان سعيد النورسي» لإحسان قاسم الصالحي (ص٢٥) ـ المختار الإسلامي.
(٢) كان النورسي يطلق على السلطان عبدالحميد «السلطان المظلوم» ويصفه بأنه ولي من أولياء اللَّه وخليفة المسلمين (الشهود الأواخر ـ نص كلام بديع الزمان نفسه (ص٢١٩).

أستطيع أن أقول له قولة الحق.

ـ الوزير: إن العاقبة ستكون غير سارة.

❑ بديع الزمان: تعددت الأسباب والموت واحد، فلئن أعدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علمًا بأنني عندما جئت إلى استانبول كنت واضعًا روحي على كفيّ. اعملوا ما شئتم، فإنني أعني ما أقول: إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتبًا؛ لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلاّ بترك المصالح الشخصية فإنني معذور إذن عندما أرفض المرتب.

ـ الوزير: إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حاليًا.

❑ بديع الزمان: إذن فلم يتأخر نشر المعارف ويستعجل في أمر المرتب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة[1].

*** مفهوم الحرية عنده:**

لما دعا ـ رحمه اللّه ـ إلى الحرية وإلى مبدأ الشورى الإسلامي التقي به كبار رجال الاتحاد والترقي لعلهم يستطيعوا أن يجعلوه تابعًا لهم فشعر بانحرافهم القوي عن الدين وخطرهم على الأمة وعدائهم للإسلام، فقال لهم: «لقد اعتديتم على الدين وأدرتم ظهوركم للشريعة»[2].

❑ وطلب اليهودي الماسوني «عمانوئيل قره صوه» مقابلته طمعًا في جرّه

(١) «بديع الزمان النورسي» لإحسان الصالحي (ص٢٨ ـ ٢٩).

(٢) «حياة سعيد النورسي وجوانبها المجهولة» لنجم الدين شاهين (ص٦٩ ـ ٧٠)، و«بديع الزمان النورسي» للصالحي (ص٣٠).

إلى صفه، ولكن ما لبث اليهودي أن خرج من عنده قائلاً: «لقد كان هذا الرجل العجيب أن يزجّني بحديثه في الإسلام»[١].

وفي عام ١٩٠٨م صرف ـ رحمه اللّه ـ جل همّه إلى إلقاء الخطب وكتابة المقالات مبينًا فيها مفهوم الحرية في الإسلام، وتأثير الإسلام في الحياة السياسية، ومطالبًا بتحكيم الشريعة الغرّاء، ومحذرًا من التفسير الخطأ للحرية لما شعر بالمحاولات الخبيثة لرجال الاتحاد والترقي فكان يقول: «بني وطني لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من أيديكم. لا تصبوا العبودية العفنة في قوالب براقة وتسقونا من علقمها، إن الحرية لا تتحقق ولا تنمو إلاّ بتطبيق أحكام الشريعة ومراعاة آدابها»[٢].

❑ وأمام المد الإلحادي لجمعية الاتحاد والترقي تشكلت في ١٩٠٩م جميعة «الإتحاد المحمدي» وأعلن عن تشكيلها في ٥ نيسان في اجتماع ديني حاشد بجامع أيا صوفيا وكان النورسي من الداعين إليها المناصرين لها، وألقى في هذا الاجتماع خطبة رائعة.

واستطاع زبالات الاتحاد والترقي من عزل السلطان عبدالحميد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩، وأعلنت الأحكام العرفية وشُكِّلت محكمة عسكرية ونُصبت المشانق للموحدين.

*** محاكمة النورسي:**

كان سعيد النورسي من الذين قُدِّموا إلى المحكمة، وقُدِّم البعض إلى أعواد المشانق.

وفي المحكمة ـ ومنظر جثث خمسة عشر من المشنوقين تُشاهَد عبر

(١) «جوانب مجهولة» (ص٨٨).

(٢) «بديع الزمان النورسي» (ص٣١).

النافذة ـ بدأ الحاكم العسكري «خورشيد باشا» بمحاكمة بديع الزمان قائلاً له:

.. وأنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن من يُطالب بها يُشنق هكذا (مشيرًا بيده إلى المشنوقين).

❑ فقام بديع الزمان النورسي وألقى على سمع المحكمة كلامًا رائعًا نقتطف منه ما يأتي:

«لو أن لي ألف روح لما تردّدت أن أجعلها فداءً لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام.. فقد قلت: إنني طالب علم لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلا بملّة الإسلام، إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه «السجن» في انتظار القطار الذي يمضي إلى الآخرة لا لتسمعوا أنتم وحدكم بل ليتناقله العالم كله؛ ألا قد حان للسرائر أن تنكشف وتبدو من أعماق القلب فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها. إنني متهيء لقدومي للآخرة، وأنا مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين علقوا في المشانق.. تصوروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب استانبول ومحاسنها فاشتاق إليها إنني مثله تمامًا في شوقي إلى الآخرة، والقدوم إليها. إن نفيكم إياي إلى هناك لا تعتبر عقوبة.. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، والآن فإنها تُعادي الحياة، وإذا كانت هذه الحكومة هكذا: فليعش الجنون، وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم»[1].

❑ وبعد براءته غادر مدينة استانبول متوجهًا إلى (وان) حيث بدأ يلقي دروسه ومحاضراته متجولاً بين القبائل والعشائر يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى الحق. وهناك ألف كتابه «المناظرات» الذي طبع سنة ١٩١٣م.

وفي سنة ١٩١١م (١٣٢٧هـ) زار ديار الشام وألقى خطبة في الجامع

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٣٤ ـ ٣٥) نقلاً عن «سعيد النورسي ـ حياته وآثاره» لمحمد سعيد البوطي (ص١٧ ـ ١٨).

الأموي في دمشق طبعت فيما بعد باسم «الخطبة الشامية» شخّص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجها.

وفي سنة ١٩١٢م وقبيل نشوب «حرب البلقان» عين بديع الزمان قائدًا للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرق الأناضول.

❑ وقُبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى أصبح بديع الزمان عضوا في «تشكيلات خاصة» وهي مؤسسة سياسية وعسكرية ـ وأمنية سرية شُكِّلت بأمر السلطان ووظيفتها هي المحافظة على وحدة أراضي الإمبراطورية ومحاربة أعدائها. وكان بديع الزمان من أنشط أعضاء قسم «الاتحاد الإسلامي» في هذه المؤسسة. وقد قامت هيئة من علماء الدين الأعضاء في هذه المؤسسة بإصدار فتوى «الجهاد» وهم: شيخ الإسلام خيري أفندي، والشيخ السنوسي، وحمدي يازر، ومحمد أسعد أفندي، والنورسي وطبعت الفتوى بجميع لغات المسلمين.

ورجع إلى «وان» وهناك شكَّل من طلابه ومن المتطوعين المدنيين فرقًا للجهاد وخاطب طلابه قائلاً: «تهيأوا واستعدوا.. إن زلزالاً شديدًا أوشك على الأبواب واشتهر طلابه بدقة التصويب، وكانت عصابات الأرمن المتواطئة مع القوات الروسية تتهيب لقاء هؤلاء المجاهدين وعلى جبهة «القفقاس» ١٩١٦م كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أُوتوا من جُهد، وفي هذه المعارك وفي جبهات القتال وخنادقه ألف سعيد النورسي كتابه «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» باللغة العربية، وعندما دخل الجيش الروسي إلى مدينة «بتليس» كان النورسي وتلاميذه يدافعون عن المدينة ببسالة نادرة حيث جرى قتال شديد في شوارع المدينة وأزقتها، وجُرِح النورسي جرحًا بالغًا، وبقى ثلاثين ساعة مغشيًا عليه، وأما النزف المستمر

وإبقاءً على حياته في ظروف قاسية شديدة البرد ذهبوا به إلى المستشفى وهناك أسره الروس وأرسلوه إلى أحد معسكرات الأسر في «قوصترما» في شرق روسيا وبقى في أسره مدة سنتين وأربعة أشهر وأربعة أيام، وفي الأسر برزت عزة المؤمن الأسير النورسي.

*** عزة المؤمن الأسير:**

وذات يوم قدم هناك إلى المحكمة الحربية بتهمة إهانة القيصر والجيش الروسي.

❑ أما قصة ذلك فهي كما يأتي:

كان خال القيصر والقائد العام للجبهة الروسية «نيكولا نيكولا فيج» يزور معسكر الأسرى فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا (سعيد النورسي).

❑ لاحظ القائد العام ذلك، فرجع ومرّ ثانية أمامه.. فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقَفَ أمامه وجرَت المحاورة الظريفة الآتية بينهما بوساطة مترجم للقائد:

ـ الظاهر إنك لم تعرفني؟

ـ بلى.. لقد عرفتك. إنك نيكولا نيكولافيج، خال القيصر، والقائد العام في جبهة القفقاس.

ـ إذن فَلِمَ تستهين بي؟

ـ كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

ـ وماذا تأمرك عقيدتك؟

ـ إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيمانًا فالذي يحمل في قلبه إيمانًا هو أفضل من الذي لا إيمان له. ولو إنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، لذلك فإنني لم أقم لك.

ـ إذن فإنك بإطلاقك عليَّ صفة عدم الإيمان تكون قد أهنتني وأهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر.

تشكلت المحكمة العسكرية، وقدِّم إليها سعيد النورسي بتهمة إهانة القيصر والأمة الروسية والجيش الروسي.

ويسود حزن في معسكر الأسرى ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحِّين عليه القيام بالاعتذار للقائد الروسي وطلب العفو منه، إلاَّ أنه رفض ذلك بإصرار قائلاً لهم:

«إنني أرغب في الرحيل إلى الآخرة والمثول بين يدي رسول اللَّه ﷺ. لذلك فإنني بحاجة فقط إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

وتصدر المحكمة قرارها بالإعدام، وفي يوم التنفيذ تحضر ثلة من الجنود على رأسها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام، ويقوم سعيد النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسي:

«أرجو أن تسمح لي قليلاً لأؤدي واجبي الأخير» فيقوم ويتوضأ ويصلي ركعتين.

ـ وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصدًا إهانتي ولكنني واثق الآن أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك، لذا فقط أبطلت قرار المحكمة، وإنني أهنئك على صلابتك في عقيدتك وأرجو المعذرة منك مرة أخرى[1].

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٤٠ ـ ٤٢).

وفرّ ـ رحمه اللّه ـ من أسره إلى ألمانيا حيث استُقبل هناك استقبالاً كبيراً ومنها توجه إلى استانبول. وعين عضواً في «دار الحكمة الإسلامية» التي لا تضم إلا صفوة العلماء.

*** نذير الصحوة:**

وعندما تتولى المصائب والهزائم على الدولة العثمانية، وتدخل جيوش الدولة الاستعمارية تركيا وتعقد معاهدة «سيفر» يحس سعيد النورسي بهذه الطعنات وكأنها توجه إلى قلبه:

«لقد كنت أحس بأن هذه الضربات التي وجهت إلى العالم الإسلامي كأنها وجهت إلى أعماق قلبي»[١].

وفي هذه الأثناء وقوات الاحتلال الإنكليزي تحتل استانبول (١٦ مارت ١٩٢٠) ألّف بديع الزمان كتابه «الخطوات الست» وأخذ ينشره سرًّا بمساعدة طلابه وأصدقائه.. يهاجم بديع الزمان في هذا الكتاب الإنكليز بلهجة قوية رادعة ويفحم الشبهات التي إثيرت آنذاك ببراهين قاطعة مفندًا حججهم ويلفت أنظار المسلمين إلى أطماعهم ويحارب اليأس الذي تسلط على كثير من النفوس ويشدّ العزائم[٢].

ومن سلسلة المؤامرات على الإسلام، وجّه الإنكليز عن طريق كنيسة «انكليكان» ستة أسئلة إلى المشيخة الإسلامية ليجيب عنها بستمائة كلمة. فوجهت المشيخة هذه الأسئلة إلى بديع الزمان، وكان جوابة: «إن هذه الأسئلة لا يُجابُ عنها بستمائة كلمة، ولا بست كلمات. ولا بكلمة واحدة.. بل بَبصقة واحدة على الوجه الصفيق للإنكليزي اللعين»[٣].

(١) المصدر السابق (ص٤٩).
(٢) المصدر السابق (ص٥٠).
(٣) المصدر السابق (٥١).

وبعد إن انهارت الدولة العثمانية ومزقت، ظهرت رغبة عند بعض المثقفين الأكراد في إنشاء دولة كُردية في الولايات الشرقية من تركيا، ولكون سعيد النورسي كردي الأصل وذا منزلة كبيرة في نفوس أهالي الولايات الشرقية. أرسل إليه أحد الصحفيين رسالة يطلب فيها الانضمام إلى الداعين لتكوين هذه الدولة، وقد أجابه سعيد النورسي برسالة مطوّلة قال فيها:

«يا رفعت بك.. سأكون معك إن حاولت إحياء الدولة العثمانية.. وأنا مستعد للتضحية بنفسي في هذا السبيل. إما تكوين دولة كردية.. فلا!».

وكذلك تسلَّم الاقتراح نفسه والطلب من السيد عبدالقادر رئيس جمعية «تعالي الأكراد» فكان جوابه هو الرفض أيضًا[1].

* **فتوى:**

بدأت حركة المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي في الأناضول، فأصدر شيخ الإسلام عبدالله أفندي تحت ضغط المحتلين الأنكليز فتوى ضد هذه الحركة والقائمين بها، ولكن سرعان ما قام ستة وسبعون مفتيًا مع ستة وثلاثين عالمًا وأحد عشر نائبًا بإصدار فتاوى مضادة، حيث أيدوا تلك الحركة وشجعوا على قتال المحتلين، وكان بديع الزمان أحد هؤلاء العلماء حيث قال:

«إن فتوى تصدر عن مشيخة وإدارة هي تحت ضغط الإنكليز وإمرتهم لا بد أن تكون غير سليمة، ولا يجوز الانصياع لها، ذلك لأن الذين قاموا بمقاومة احتلال الأعداء لا يمكن اعتبارهم عصاة، لذا يجب سحب هذه الفتوى»[2].

(١) المصدر السابق (ص٥١).
(٢) المصدر السابق (ص٥٢).

* مع مصطفى كمال:

ولاشتهار بديع الزمان بعدائه للمحتلين، فقد دُعي إلى أنقرة ـ مركز حركة المقاومة ـ من قبل مصطفى كمال للانضمام إليهم، إلاَّ أنه رفض الدعوة قائلاً:

«إنني أريد أن أُجاهد في أخطر الأمكنة، وليس من وراء الخنادق، وأنا أرى أن مكاني هذا أخطر من الأناضول»[1].

ولكن الدعوة تكرَّرت، فأرسل إلى أنقرة بعض طلابه، ثم ذهب هو إليها سنة ١٩٢٢م قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، إلاَّ أنه لم يسعد في أنقرة كثيرًا، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة. كما إن تصرفات مصطفى كمال وسلكوه المعادي للإسلام أحزنه كثيرًا، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانًا في ١٩/١/١٩٢٣ يتضمن عشرة مواد موجهًا إلى النواب يعظهم ويذكّرهم بالإسلام مستهلاً بـ:

«يا أيها المبعوثون.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم».

وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزّع بين النواب، وتولَّى القاءه الجنرال كاظم قرة بكر (القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائبًا من النواب قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى إن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيًا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

لم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان، فاستدعى بديع الزمان وحدثت بينهما مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال:

«لا ريب إننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد عوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمتَ به لنا هو الحديث عن

---

(١) المصدر السابق (ص٥٢).

الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس.

فأجابه بديع الزمان مشيراً إليه بأصبعه في حدة:

«باشا.. باشا.. إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود..»[1].

لذلك فكَّر مصطفى كمال بإبعاده عن أنقرة بحجة تعيينه واعظًا عامًا للولايات الشرقية وبمرتب مُغرٍ، ولكن سعيد النورسي رفض هذا الطلب.

*** كتبه ورسائله خلال تلك الفترة:**

أول ما نشره «إشارات الإعجاز» ثم في سنة ١٩٢٢م نشر «السنوحات» وفي سنة ١٩٢٣ نشر الرسائل الآتية: «رموز الإشارات» و«طلوعات» و«لمعات» و«شعاعات من معرفة النبي ﷺ نقطة من معرفة اللَّه»، وألف في أنقرة «ذيل الذيل»، الحباب، وأجزاء من المثنوي العربي النوري».

وقد أورد في هذه الرسائل دلائل قاطعة على وجود اللَّه ووحدانيته، محاولاً بذلك التصدي لموجة الشك والإلحاد والبعد عن الدين التي ظهرت بين أوساط المفتونين بالغرب، حيث يصف هذه الحالة في مقدمة «رسالة الطبيعة»:

«دُعيت لزيارة «أنقرة» سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي، إلاَّ أنني أبصرتُ ـ خلال موجة الفرح هذه ـ زندقة رهيبة تدبُّ بخبثٍ ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها. فتأسفت من أعماق روحي، وصرخت مستغيثًا باللَّه العليّ القدير ومعتصمًا بسور هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم:

(١) المصدر السابق (ص٥٣).

١٠] من هذا الغول الرهيب الذي يريد أن ينقضّ على أركان الإيمان ويُعْمِلَ معاوله في أسسه وأصله يقطع رأس تلك الزندقة ويدحرج أشلاءها، وقد صنفتها بالعربية، واستقيت معانيها وأفكارها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بداهة وجود اللّه سبحانه ووضوح وحدانيته، وقد طبعتها في مطبعة «يني كوُن» في أنقرة.. إلاَّ أنني لم ألمس آثار البرهان الرصين في مقاومة الزندقة وإيقاف زحفها إلى أذهان الناس، وسبب ذلك ـ على ما أظن ـ كونه مختصراً ومجملاً جداً، فضلاً عن قلة الذين يتقنون العربية في تركيا وندرة المهتمين بها آنذاك، لذا فقد انتشرت أوهام ذلك الإلحاد وأستشرت في صفوف الناس مع الأسف الشديد، مما أضطرني إلى إعادة كتابة تلك الرسالة ببراهينها بالتركية، مع شيء من البيان والتوضيح، فكانت هذه الرسالة..[1].

نفي النورسي إلى «بارلا» وتأليفه لمعظم رسائل النور في مدة نفيه:

وبعد ثورة الشيخ سعيد بيران الكردي وقضاء أتاتورك عليها وعدم اشتراك النورسي فيها لعدم رغبته في إهراق دماء المسلمين، وعدم ثقته في معظم القائمين عليها وقلة وعيهم الإسلامي وعدم مقدرتهم على تمثيل الإسلام الصحيح؛ إلا أنه اعتقل ونُقل إلى استانبول ومن هناك إلى «بارلا» وهي بلدة صغيرة نائية من أعمال «اسبارطة» في غرب الأناضول في شتاء سنة ١٩٢٦م ـ حتى يقل تأثيره ويطويه النسيان ويجف هذا النبع الفيَّاض وصنعوا له غرفة خشبية غير مسقّفة صغيرة وُضعت بين أغصان شجرة دُلب ضخمة، قضى الشيخ في منفاه ثماني سنوات ونصف سنة، متفكراً متعبداً متهجداً حتى انبلاج الصباح في معظم الأحيان كتب فيها معظم «رسائل النور» التي امتد إشعاعها إلى كل قرية وكل مدينة في أرجاء تركيا.

وتعرّف خلال هذه المدة بتلميذه الوفي «سليمان» وكان هو أول حلقة

(١) المصدر السابق (ص٥٤، ٥٥).

وصلت بينه وبين الآخرين، وبدأت حلقاته تتسع وتنتشر، ونشط تلاميذه في دراسة «رسائل النور» واستنساخها ونشرها في كل تركيا متحملين جميع تبعات هذا العمل من اعتقال ومطاردة وتعذيب.

*** رسائل النور:**

في تلك السنوات الحالكة كان الإسلام يتعرض لزلزال كبير في تركيا، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية والإعلام التي تملكها، وبأقلام جميع المنافقين والمتزلفين وأعداء الإسلام من الكتّاب والصحفيين في الوقت الذي كممت فيه أفواه دعاة الإسلام، وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم، لذلك فقد تعرضت أسس الإسلام وأصوله ومبادئه الأولية إلى الشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذي لم يكن يجد أمامه مرشدًا وموجهًا، لذلك فقد قرَّر الأستاذ سعيد النورسي أن يحمل تلك الأمانة الكبرى على كاهله، وأن يحاول «إنقاذ الإيمان» في تركيا.

نعم..إنقاذ الإيمان تلك كانت هي المسألة الرئيسية التي لا تحتمل التأجيل أو التسويف أو الاهتمام بأي أمر عداها، لذلك فإنه كان يصحح مفاهيم الذين كانوا يزورونه وهم يتصورون أنه شيخ طريقة صوفية فكان يقول لهم:

«إنني لست بشيخ طريقة، فالوقت الآن ليس وقت طرق صوفية بل وقت إنقاذ الإيمان»[1] فنرى أن من أولى الرسائل التي ألفها هي «رسالة الحشر» حيث إن مسألة البعث ووجود يوم القيامة ويوم الحشر أصبحت تصور من قبل الدوائر الملحدة وكأنها خرافة أو أسطورة لا سند لها من دليل عقلي أو علمي. وقد شرح الأستاذ في هذه الرسالة مسألة البعث والحشر مستلهمًا

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٧١).

من الأسماء الحسنى مورداً فيها شواهد قريبة من نظر الإنسان، ومن حياته الواقعية، فنومه نوع من أنواع الموت، ويقظته نوع من البعث، النباتات تذبُل وتموت، ثم لا تلبث أن تورق وتزهر من جديد.. إنها عملية بعث جديد، تتكرر أمام أنظارنا على الدوام، فلِمَ الاستغراب إذن من البعث يوم القيامة؟!

كان تأليف «رسائل النور» ونشرها شيئًا متميزًا وفريدًا في تاريخ الدعوات الإسلامية المعاصرة، ذلك لأن الأستاذ سعيد النورسي لم يكن يكتب كثيرًا من رسائله بيده وإنما كان يملي هذه الرسائل على بعض طلابه في حالات من الجيشان الروحي والوجداني، وبعد ذلك تتداول النسخة الأصلية بين التلاميذ الذين يقومون بدورهم باستنساخها باليد، ثم ترجع هذه النسخ جميعها إليه[1] لكي يقوم بتدقيقها واحدة واحدة، وتصحيح أخطاء الاستنساخ إن وجدت، ولم يكن لديه أية كتب أو مصادر يرجع إليها عند التأليف سوى القرآن الكريم، وقد ساعده على ذلك ما وهبه اللَّه من ذاكرة خارقة وقدرة عجيبة على الحفظ، فكان يستقي عند تأليفه رسائله من مخزونات محفوظاته في مصادر العلوم الدينية التي كان قد قرأها في بداية حياته[2].

❑ لما استبدل أتاتورك الحروف العربية إلى حروف لاتينية وحظر النشر بها، وأُغلقت مطابعها كانت الطريقة الوحيدة لرسائل النور للشيخ المنفي المراقب هي طريقة الاستنساخ باليد، والكتابة بالحروف العربية حفاظًا عليها

(١) يقول عبدالله جاويش: «كنت أغادر قرية (إسلام) بعد المغيب حاملاً في حقيبتي الرسائل التي استنسخها (الحافظ علي) وأسير الليل كله مشيًا على الأقدام حتى أصل مع الفجر إلى (بارلا) وأرى الأستاذ في انتظاري، ويستقبلني بسرور بالغ. نصلي الفجر معًا. ثم أستسلم للنوم.. وهكذا كنت أتسلم في اليوم التالي المسودات من الأستاذ، وأغادر (بارلا) ليلاً لأصل قرية (إسلام) فاسلّم المسودات إلى (الحافظ علي). son sahitler (١/ ٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص٧٢).

من الانذثار والنسيان، وبدأ عشرات بل آلاف من طلبة النور رجالاً ونساء في مباشرة هذا الاستنساخ حتى أن بعضًا منهم قضى سبع سنين لم يغادر منزله وهو مكب على هذه المهمة. وأتى بعض النسوة إلى الشيخ النورسي قائلات له: «يا أستاذنا.. إننا لكي نشارك في خدمة رسائل النور قررنا القيام بالأعمال اليومية لأزواجنا لعلهم يتفرّغون كليًّا لكتابة رسائل النور»[1].

*** منع الأذان باللغة العربية سنة ١٩٣٢ وردّ النورسي:**

في سنة ١٩٣٢م صدرت الأوامر بمنع الأذان باللغة العربية، واستُبدلت العربية في الأذان باللغة التركية، فكانت مصيبة جديدة أدمت القلوب وأدمعت العيون.. أين ذلك الأذان الذي كانت تهفو إليه القلوب، تخشع له النفوس، من هذا الأذان الذي تنفر منه القلوب وتنبو عنه الأسماع؟!

وفي المسجد الصغير الذي كان يصلي فيه الأستاذ سعيد النورسي إمامًا لبعض القرويين، كانوا يصرون على الأذان وأقامة الصلاة داخل المسجد باللغة العربية.

وما لبث أن ترامى هذا الخبر الخطير إلى سمع مدير الناحية الذي رتَّب كمينًا داخل المسجد، فأخفى بعد الجندرمة في المسجد، في القسم المخصَّص للنساء، لكي يتم القبض على «المجرمين».. في حالة التلبس بالجريمة.

سيق هؤلاء القرويون في عز الشتاء مشيًا على الأقدام، وفي طرق مغطاة بالثلوج حتى (اغريدير).

لنستمع إلى أحد هؤلاء ـ وهو مؤذن المسجد ـ يروي ذكرياته عن هذه الحادثة، إذ يقول:

ـ كم آذونا في مسألة الأذان، عندما اخترعوا لنا أذانًا تركيًا.. كان هناك

(١) المصدر السابق (ص٧٥).

معلم معادٍ للأذان الشرعي ـ باللغة العربية ـ وبعض علماء الدين يقولون: يجب طاعة أوامر أولي الأمر. أما أنا فكنت أقول: لا أعرف مثل هذه الطنطنة المسماة بالأذان التركي الغريب، وأنى لي العلم بأن (حفلة صاخبة) تُعدّ لي!؟.

ففي أحد الأيام داهموا مسجد الأستاذ سعيد النورسي، وقبضوا على (عبدالله جاويش، ومصطفى جاويش، وسليمان، وعليّ وأنا) وطردوا الباقين.. أخذونا إلى مدينة (اغريدير) مشيًا على الأقدام فوق الثلوج، وهناك أودعونا السجن ومنعوا الجميع من التحدث معنا، وفي أحد الأيام أحضروني عند المدعي العام، وكان عنده ضباط برتبة عميد وعقيد قالوا لي:

ـ حسبما سمعنا فقد أعطيت لهذا الكردي (يقصد الأستاذ) مئة وخمسًا وعشرين ليرة ذهبية. فما مقدار الذخيرة التي اشتريتموها بهذا المبلغ؟!

ـ قلت: إن الحكومة التركية تشبه سفينة، وأنتم أعلم بما يدخل ويخرج من هذه السفينة. إن الأستاذ لا يملك مدفعًا ولا بندقية، بل هو يريد نشر الاطمئنان والوئام.

سألني: هل عندك أطفال؟

قلت: نعم.

قال: إذا لم تصدق، ولم تقل الحقيقة، فالشنق ينتظرك!

قلت: إن هذا الشخص ليس إلا خادمًا للقرآن، فماذا يعمل بالمدفع والبندقية. إن بندقيته ومدفعه هو القرآن لا غير.

وعندما انعقدت المحكمة سألني الحاكم:

ـ من الذي أذن بالعربية؟

قررت أن أتظاهر بالصمم. فوقفت ساكنًا دون جواب وكأنني لم أسمع السؤال.

التفتَ إليَّ الحاكم سائلاً: هل اسمك سليمان؟.

قلت: لما كان الوقت شتاء، فقد حضرت قبل يوم.

الحاكم: قلت لك ما اسمك؟

ـ لقد نمت في الخان يا سيدي.

فغضب الحاكم غضبًا شديدًا، والتفت حوله صائحًا:

ـ اخرجوا هذا القذر[1].

ونقل النورسي بعد ذلك من منفاه إلى اسبارطة سنة ١٩٣٤م حيث ألف هناك بعض رسائل النور «رسالة الاقتصاد، ورسالة الإخلاص، والتستر، والإشارات الثلاثة»، و«المرضى والشيوخ» وجميعها من «اللمعات».

وفي نيسان ١٩٣٥م اعتقل الشيخ ومعه مئة وعشرين من تلاميذه وسيقوا جميعًا إلى سجن مدينة «أسكي شهر» انتظارًا لمحاكمتهم بتهمة «تشكيل جمعية سرية تعادي نظام السلطة القائمة وتسعى لقلبه»، والعمل على هدم الثورة الكمالية، وإثارة روح التدين بنشر رسالة «الحجاب».

وبثت الحكومة شائعات في البلد من أن طلبة النور وأستاذهم سوف يعدمون، وذلك لغرض إلقاء الرعب في قلوب الناس، وتحذيرهم من الانخراط في صفوف طلبة النور.

*** لمعات من ظلمات السجن: (المدرسة اليوسفية الأولي):**

وضع الأستاذ سعيد النورسي في سجن انفرادي مسلطين عليه مضايقات كثيرة، بهدف التأثير في روح المعنوية، ولكن الأستاذ رغم هذه المضايقات كان مستمرًا في تأليف رسائل النور، ففي هذا السجن ألَّف اللمعة الثامنة

(١) المصدر السابق (ص٧٦ ـ ٧٧).

والعشرين واللمعة التاسعة والعشرين واللمعة الثلاثين، مع الشعاع الأول والثاني. كما أن كثيرًا من المجرمين في هذا السجن قد تابوا إلى اللّه، وبدأوا اتباع الطريق المستقيم.

لم يسفر التحقيق الطويل مع الأستاذ ومع طلبته عن شيء يمكن الاستناد إليه في الحكم بإدانته أو إدانة طلابه، إلاَّ إن المحكمة حكمت عليه بالسجن أحد عشر شهرًا، بسبب رسالته عن «الحجاب» وهي اللمعة الرابعة والعشرون.

*** الدفاع المشهور:**

وقد ترافع الأستاذ أمام المحكمة وألقي دفاعًا مشهورًا نقتطف منه ما يأتي:

*** يا حضرات الحكام:**

لقد جيء بي إلى هنا بتهمة أنني شخص رجعي الدين سبيلاً إلى الإخلال بالأمن العام. وإنني أقول لكم:

إن إمكانية عمل شيء لا يستدعي وقوعه ولا المعاينة عليه، فعود الكبريت يمكنه إحراق بيت، ولكن هذا الإمكان لا يعني ارتكاب أي جريمة.

إن انشغالي بعلوم الإسلام لا يخدم إلا رضى اللّه تعالى، وحاشا أن يخدم أي غرض كان غير ذلك.

لقد سألتم: هل أنا ممن يشتغل بالطرق الصوفية؟ وأنني أقول لكم: إن عصرنا هذا هو عصر حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة. إن كثيرين يدخلون الجنة بغير الانتماء إلى طريقة صوفية، ولكن أحدًا لا يدخل الجنة بغير إيمان.

وتقولون: من أين تأتي بالمال لجمع الناس من حولك في جمعية، وإنني أسأل هؤلاء ومن أين لهم الوثائق التي أثبتوا بها أنني اشتغلت بجمعية أو قمت بأي نشاط يحتاج إلى المال؟

وتعترضون قائلين: إنني لستّ موظفًا في ما اعمل فيه. وللتدريس مديرية خاصة ينبغي أن اتلقى الأذن منها أولاً، ولكن أقول لكم:

لو أنَّ أبواب القبور كلَّها أُغلقت، وأُعدم الموت من الوجود، لجاز أن ينحصر الأذن في دائرتكم. أما وإن ثلاثين ألف جنازة تنادي كل يوم نداء الموت، وتوقع على حكمه، فإن هذا يعني أن ثمة وظائف وواجبات أخرى أهم كثيرًا مما انحصر في دائرتكم وأحكامكم[١].

*** نفي بديع الزمان إلى قسطموني:**

بعد أن قضى بديع الزمان في سجن «أسكي شهر» مدة سجنه البالغة أحد عشر شهرًا، نفي إلى مدينة «قسطموني» في ربيع سنة (١٩٣٦م)، إذ اقتيد إلى مخفر الشرطة، حيث قضى فيه مدة ثلاثة أشهر، نقل بعدها إلى بيت صغير يقع أمام المخفر مباشرة، لكي يكون تحت المراقبة الدائمة. كان البيت مؤلفًا من طابقين: الطابق الأرضي مخزن للوقود، إما الطابق الثاني فكان مكونًا من غرفتين، وكان بديع الزمان يدفع إيجار هذا البيت بنفسه.

بقي بديع الزمان في «قسطموني» سبع سنين استمر خلالها في كتابة رسائل النور مثل «الشعاع السابع» رسالة «الآية الكبرى»[٢]، وكذلك الشعاع

---

(١) المصدر السابق (ص٧٨ ـ ٨٠).

(٢) رسالة الآية الكبرى: هي مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، فهو يسأل السماء والنجوم والصحاري والبحار وهكذا.. ثم العلماء، والأولياء، والأنبياء، والرسول الحبيب ﷺ، والملائكة وعالم الغيب والوحي، والقرآن.. مع ذكر الدلائل والمعجزات وهي تستنطق المخلوقات وتبين كيف إنها دليل وأثر من آثار الخالق الكريم. فهي سياحة فكرية وروحية عجيبة رائعة لا مثيل لها، وقد طبعت عدة مرات وترجمت إلى أكثر من لغة.

الثالث ـ رسالة «المناجاة» ـ والشعاع الرابع والشعاع السادس[٣] والشعاع الثامن والتاسع مع تبييض الخامس.

*** سعادة بريد النور:**

في هذه الفترة، استمر بديع الزمان في مراسلة طلابه بشتى الوسائل متخطيًا العيون المترصدة لحركاته، إذا كانت رسائله تنقل سرًّا، ثم تستنسخ، ثم توزع على القرى، والنواحي، والمدن القريبة، فتشكلت بهذا «سعاة بريد النور» الذين كان واجبهم ينحصر في نقل الرسائل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، كما انتظمت وقويت مسألة استنساخ الرسائل، فهناك بعض الطلبة الذين استنسخوا وحدهم أكثر من ألف رسالة، وبهذه الطريقة استنسخت رسائل النور كتابة باليد ستمئة ألف نسخة. وانتشرت في أرجاء تركيا تدريجيًّا منتصرة على جيوش الظلام، ومعلنةً بأنه لا يمكن إطفاء نور الإسلام أبدًا. ثم جمعت هذه الرسائل التي تشمل نواحي دقيقة في العقيدة، وردّ الشبه المضللة حول بعض الأحاديث الشريفة، وكثيرًا جدًّا من فقه الدعوة إلى اللَّه، تحت عنوان «ملحق قسطموني»[١].

*** النورسي لا يلبس القبعة ولا يغير زيّه:**

صدر قانون الأزياء في سنة ١٩٢٥م حُرِّم بموجبه لبس الزي العثماني والحجاب للنساء، وفُرض السفور والزي الأوربي ولبس القبعة.

ولما كان بديع الزمان لا يزال محتفظًا بملابسه وعمامته خلافًا لقانون الأزياء، فقد استدعاه الوالي «مدحت آلتي اوق» والي «قسطموني» إلى مقره

(١) الشعاع الرابع هو شرح لآية ﴿حسبنا اللَّه ونعم الوكيل﴾، والشعاع الخامس يخص (الدجال وفتنته في آخر الزمان) والشعاع السادس في شرح معنى (التحيات للَّه).

(٢) «بديع الزمان سعيد النورسي» (ص٨١ ـ ٨٢).

الرسمي، فجاء بديع الزمان إلى مقر الوالي يحيط به رجال الشرطة، وكان ثائرًا فالظاهر إن أحدهم حاول نزع عمامته في الطريق. دخل إلى غرفة الوالي قائلاً له بحدة:

ـ «اسمع يا مدحت؛ ليس هناك سوى حاجز رقيق بيننا وبين الموت الذي تخشونه، فإذا أقتحمنا هذا الحاجز لم يبق هناك شيء يمكن الخشية منه، لذلك فاتخذ ما تحب من إجراءاتك القانونية».

أصفرّ وجه الوالي، وارتبك ولم يجد جوابًا، وبصعوبة بالغة وصلت أصابعه إلى الجرس الموضوع على مكتبه، ليضغط عليه مستدعيًا رجاله ليأخذوا بديع الزمان إلى بيته، دون أن يجسر وهو الوالي المشهور بفظاظته وقسوته بمطالبة الأستاذ بتبديل قيافته[1].

وفي أنقرة يطلبه الوالي «نوزاد طان دوغان» حيث تجري بينهما مناقشة حول زيّه، إذ يحاول الوالي تبديل زيِّه قسرًا، فيردّ عليه الأستاذ بديع الزمان من أنه شخص منزو، وإن قانون الأزياء لا يشمله، وإن هذه العمامة لا تُرفَع إلاَّ مع هذا الرأس مشيرًا على عنقه!![2].

*** النورسي مع طلاب المدارس الثانوية:**

في تلك السنوات الحالكة حذفت دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات «الخالق، الرب، اللَّه جلّ جلاله» من الكتب المدرسية ووضعت بدلاً منها كلمات «الطبيعة، التطرر، الوطنية، القومية.. إلخ». فقد كانت الغاية مسخ مفهوم (الإله) ومسخ فكرة (الخالق) من الأذهان، ونشر مفهوم أن الإيمان باللَّه سبحانه يتوافق مع الجهل، وإن من علامات الثقافة والعلم إنكار وجود اللَّه. ولعلّ من المفيد أن ننقل ترجمة الفقرة من مادة كلمة

(١، ٢) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٨٤، ٨٨).

لفظ الجلالة «اللَّه» الواردة في (دائرة معارف الحياة) التركية المطبوعة في استانبول سنة (١٩٣٢م) الجزء الأول، لكي يتضح الجو الفكري السائد آنذاك عند مدعي العلم والتوجيه في تركيا، بعد أن نقرأ مفهومهم عن كيفية نشوء فكرة الإلـه عند الإنسان البدائي، وكيفية تطورها ومجيء الأديان تنتهي بالأسطر الآتية:

«إن الفكرة التي تريد الأديان الموجودة حاليًا، أن تبثّها هي: إن اللَّه واحد، وأنه هو الذي خلق الكون. ولكن التقدم العلمي بدأ يوضح شيئًا فشيئًا، وبأن هذه الفكرة باطلة، وأنه لا وجود لشيء اسمه (اللَّه).

وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد باللَّه بين أوساط المثقفين».

وهكذا كانت معاول الهدم تهدم الإيمان باللَّه في نفوس الجيل الجديد، وتثير الحيرة فيها، ويتحدث السيد «عبداللَّه يكن» مؤلف «يني لغات» «القاموس الجديد» عن جيرته هذه عندما كان طالبًا في المدرسة المتوسطة، فيقول بأن مدرسيه لم يكونوا يتحدثون مطلقًا عن (اللَّه) فكان يذهب هو وصديق له يدعى «رفعت» لزيارة بديع الزمان:

«كنا أنا وصديقي رفعت نزوره على الدوام، فكان يتحدث معنا عن أهمية الإيمان، وعن وحدانية اللَّه، وإن الإنسان لم يخلق للعيش بدون ضوابط، وكنا نحسّ في أعقاب كل زيارة بأننا قد ولدنا من جديد، وكانت نفوسنا تطفح بالسعادة المعنوية وبالبشر والفرح...».

وقد أحس بديع الزمان بضرورة كتابة رسالة عن هذا الموضوع الخطير، لكي يكون وسيلة إنقاذ لآلاف، ومئات الآلاف من الجيل الجديد الحائر، الذي يبحث عن نور لقلبه، وهداية لروحه. يقول بديع الزمان في مقدمة هذه الرسالة:

جاءني فريق من طلاب الثانوية في «قسطموني» قائلين: عرِّفنا بخالقنا،

فإن مدرسينا لا يذكرون اللَّه لنا! فقلت لهم: إن كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن اللَّه دومًا، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين.

فمثلاً: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما إنها ترينا أن وراءها صيدليًّا حكيمًا، وكيميائيًّا ماهرًا، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأحياء ـ نباتًا وحيوانًا ـ وكل واحد منها في الحقيقة زجاجة مستحضرات كيماوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة تري ـ حتى للعميان ـ صيدليها الحكيم ذا الجلال، وتعرِّف خالقها الكريم سبحانه بدرجة كمالها، وانتظامها، وعظمتها، ومدى نسبتها قياسًا على تلك الصيدلية التي في السوق، وذلك وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه[1].

❑ للَّه در النورسي:

ما أجمل سمت المخلصين الصادقين للَّه درهم وهم الذين كساهم رسول اللَّه عز وجل تاجًا من البهاء لا يفارق وجوههم النضرة وكان للنورسي منه نصيب أي نصيب!!.

ففي أحد المرّات وعندما كان جالسًا على حائط قلعة «قسطموني» الأثرية مرّ من هناك شخص سكّير يترنّح في مشيه سالكًا الطريق المؤدّي إلى بيوت الدعارة (التي أصبحت عَلَنية). وصل السكّير إلى القرب من الحائط الذي يجلس عليه بديع الزمان، وتسمر في مكانه لا يتقدم خطوة إلى الأمام، ولا يتأخر خطوة إلى الوراء، وهو يتطلع إلى فوق.. إلى العالم الجليل، المتسربل بالملابس البيضاء، تطلّع إليه بديع الزمان لحظة. ثم ابتسم له، وسلّم

(١) المصدر السابق (ص٨٧).

عليه، ثم قال له:

«ـ ارجع يا أخي.. لا تذهب إلى هناك! بل ارجع وأغتسل وتُب إلى اللَّه وابدأ بالصلاة».

نفذ هذا الصوت المملوء محبة واشفاقًا إلى قلب السكّير، فلم يحسّ إلا والدموع تطفر من عينيه، ثم تنتابه نوبة من البكاء، وهو يقفل راجعًا إلى بيته. ويحتار رجل الأمن المكلّف بمراقبة حركات بديع الزمان، ويسرع، إلى السكير آخذًا بتلابيبه وصارخًا في وجهه: قل لي بسرعة، اجبني بسرعة ماذا قال لك ذلك الكردي؟![1].

*** سجن دنيزلي «المدرسة اليوسفية الثانية»:**

اقتيد الشيخ النورسي ومعه مئة وستة وعشرين من طلاب النور من مختلف مدن تركيا إلى سجن دنيزلي بتهمة تأليف جمعية سرية، وتحريض الشعب على الحكومة العلمانية، ومحاولة قلب نظام الحكم، ثم تسمية مصطفى كمال بالدجال و«هادم الدين» حيث قضى بديع الزمان تسعة أشهر في زنزانة انفرادية، وكان طلابه مسجونين بنفس السجن اقتيد وهو ابن سبعين عامًا وألف أثناء مُكوثه في سجن «دنيزلي» رسالة «الثمرة»، كان يكتبها على قصاصات من الورق، ويضعها في علب الكبريت، ويرميها خفية من شباك ردهته إلى طلابه وهم بدورهم يستنسخونها.

*** دفاع رائع:**

وأثناء مدّة التوقيف عقدت محكمة الجزاء الكبرى عدة جلسات للمحاكمة، وقد ألقى بديع الزمان دفاعًا رائعًا أمام هذه المحكمة نورد جزءًا منه هنا: (٤٨)

(١) المصدر السابق (ص٨٣).

نعم.. نحن عبارة عن جمعية، وإنها لجمعية تحوي في كل عصر على (أربعمائة) مليون من الأعضاء المنتسبين إليها، وهم في كل يوم يعبرون خمس مرات دائمًا عن أتم علاقتهم بالدستور العظيم لهذه الجمعية وهم يتسابقون دائمًا إلى تحقيق أهم شعائرها ألا وهو «إنما المؤمنون أخوة» فنحن من أفراد هذه الجمعية المقدسة تعريفًا علميًّا راسخًا، وذلك تعاون منا على أعتاق أنفسنا من سجن الأبدية الذي يتهددنا.

بأي وجه حق تستطيعون إيقاف حركة «رسالة النور» وإنما هي عبارة عن خدمة حقائق القرآن، والقرآن حقيقة مرتبطة بعرش اللّٰه العظيم؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجرأ فيقف في وجه حقيقة ترتبط بعرش اللّٰه تعالى؟

إنني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط بل إلى تلك الجماعة المتآمرة في «اسبارطة» أيضًا. إنني لأعجب كيف يُتهم إناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية؟! على حين يحق لمارق مثل (الدكتور دوزي) أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعتبر ذلك أمرًا مقدسًا لأنه حرية للرأي والفكر، هذه حرية للرأي والفكر.

أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشعّ في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة تنهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة!

إنكم تتهمونني بمعاداة «الجمهورية» ولكني أقول لكم، إنني منذ كنت طالب علم يؤتى لي بطعامي من الخبز والحساء، كنت آكل نصيبي منه ثم أنثر ما بقي منه بين جماعات من النمل كانت بالقرب مني ـ تقديرًا لجماعتها وتقديسًا لنظامها وإخوتها ـ إنكم تستطيعون أن تعلموا من هذا مدى تقديري لحقيقة الجمهورية الصالحة. علي أن أكبر على تقديسي الجمهورية هو احترامي لخلفاء الإسلام، فقد كانوا إلى جانب كونهم خلفاء، رؤساء جمهورية أيضًا:

ولقد كانت حياتهم حياة جمهورية لا في الادعاء اللفظي فقط، بل في الحقيقة والواقع.

أما عن الجمهورية العلمانية، فنحن نعلم أنها تلك التي لا تتعرض للدين في خير أو شرّ. ولكن ها أنتم أولاء تفسحون الطريق أمام كل جريمة، وفاحشة خلقية، وكذب على اللّه والكون، باسم الحرية الوجدانية والفكرية، حتى إذا تنبهتم لآية من القرآن تفسر وتجلي حقائقها، رفعتم أصواتكم بالنكير وقلتم: جمعية سرية سياسية.. وخطورة!!.

إن المسألة إذن من الخطورة والإجرام بحيث تحاولون أن تستروها برداء العلمانية، فإن كان الأمر كذلك فاعلموا أنه لو كانت لي ألف روح فأنا على استعداد أن أفدي كل ذلك في سبيل أهم حقائق الكون ألا وهو دين اللّه تعالى، وسأحتمي منكم بحصن واحد فقط هو: «حسبنا اللّه ونعم الوكيل».

إنكم تدورون ثم تقولون: إن أعمالي الدينية ما هي إلاّ استغلال ووسيلة للإخلال بالأمن. ولكن أقول لكم بالمقابل: إن دعواكم هذه ليست إلا استغلالاً ووسيلة لإعدام الدين باسم المحافظة على الأمن.

إنكم تعلمون إن رسالة النور تضيء منذ عشرين عامًا، فهل سجلتم منذ ذلك اليوم إلى الآن حادثة واحدة أخلت بالأمن؟ إذن فإن تكن المادة ذات الرقم (١٦٢) ما هي إلا عبارة عن كرة تقذفون بها إلي حيث أردتم، وما أرادتكم إلا معاداة الدين.

إذن فاسمعوا يا مَن بِعتم دينكم بدنياكم ونكستم في الكفر المطلق، إنني أقول بمنتهى ما أعطاني اللّه من قوة: افعلوا كل ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام.

نحن في كل لحظة ننتظر أحكام أعدامكم، إن السجن الخارجي على هذه الحال اسوأ مائة مرة من ذلك السجن الداخلي.

وتقولون: لماذا لا تلبس قبعتنا منذ عشرين عامًا مرة واحدة؟ ولم تكشف عن رأسك لمحكمتنا مرة واحدة مع إن سبعة عشر مليونًا انسجموا مع هذا اللباس؟

وإنني أقول: ليسوا سبعة عشر مليونًا، ولا سبعة ملايين بل لا يوجد أقل من القليل لبسوها بمحض إرادتهم واختيارهم. اللَّهم إلا حفنة من الحمقى الذين يلهثون وراء رذيلة وانحطاط أوروبا.

إن مثلي ممن ترك الحياة الاجتماعية منذ خمس وعشرين سنة لا يقال عنه في هذا مخالف أو معاند، وافرضوا أنه عناد فما دام أن مصطفى كمال بنفسه لم يقدر أن يكسر عنادي، وإن محكمتين وحكومة ثُلاث ولايات لم تستطع التأثير فيّ فما أنتم وخطبتكم حتى تضيعوا الوقت في هذا اللعب؟

ويقول في موضع آخر من دفاعه:

هذه هي الحقيقة ونحن نقول بكل قوة:

أيا من بعتم دينكم بدنياكم. أيها الكافرون التُعساء، أنفقوا ما شئتم. ستكون الدنيا وبالاً عليكم، لقد فُديت هذه الدعوة المقدسة بملايين الأبطال ونحن مستعدون لأن نفديها بأرواحنا، إننا نفضل البقاء في السجن ألف مرة على أن نرى الحرمات تُنتهك، في ظل هذا الاستبداد لا يمكن أن يقال إن هنا: حرية، حرية العلم. أو حرية الضمير، أو حرية التعبير أو حرية الدين، وبقي على طلاب الحرية أن يموتوا أو يبقوا في السجون محتمين باللَّه تعالى قائلين: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

إن الدعوى المقامة على رسائل النور ليست مسألة شخصية أو شيئًا بسيطًا حتى يقلل من شأنها، إنها مسألة تهم الأمة والوطن والدولة وتهم الأمة الإسلامية، والعالم الإسلامي بأسره سيتابع هذه المسألة باهتمام بالغ.

نعلن بأننا منتسبون إلى الجماعة الإسلامية التي ينتسب إليها أكثر من

ثلاثمائة مليون مسلم، فنحن حزب اللَّه ونحن إخوة متضامنون.. خدم القرآن.. وجند اللَّه وحزبه. أيها السادة! يا رئيس المحكمة!

إنكم إذ تصدرون هذه الأحكام على رسائل النور وطلابها، وتدعون الكفر والإلحاد، وتحاولون حجب الحقائق القرآنية والإيمانية عن عيون البشر، وتريدون بذلك سد الطريق الذي سار عليه ملايين بل مئات الملايين من المسلمين ووصلوا إلى السعادة الأبدية الحقيقية، فلن تجنوا سوى حقدهم وازدرائهم.

إن الزنادقة والمنافقين غرروا بكم وصفعوا العدل والحق، وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساس إلى مشاغل لا فائدة منها، واتخذوا من الاستبداد جمهورية، والردّة نظامًا ومن الجهل والسفه مدنية، ومن الظلم قانونًا، وبذلك خانوا وطنهم وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضرب مثلها[1].

❑ وفي عام ١٩٤٤م وضعوا الشيخ في إقامة جبرية في أميراداغ، ووضعوا على بابه حارس لا يفارق الباب لمتابعة حركات الشيخ وسكناته، ودسّوا له السم في طعامه، وشاء اللَّه أن لا يموت، وجعل ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «إنه مما يعوضني عن عشرة الناس يحال بيني وبينهم، إن مليونًا من المسلمين يعكفون على دراسة رسائل النور التي انتشرت فيما بينهم، إنهم إن استطاعوا أن يسكتوني أمام الناس، فلن يستطيعوا إسكات رسائل النور التي تصل إلى شغاف القلوب.. إن كل نسخة منها تقوم مقامي في الكلام والبيان، ولن تسكتها أي قوة كانت على الأرض»[2].

❑ هل كان مرور اثنتين وعشرين سنة من حياة النفي والإقامة الجبرية

(١) المصدر السابق (ص٩٠ ـ ٩٤).

(٢) المصدر السابق (ص٩٧).

والمراقبة والترصّد لشيخ بلغ عمرة الخامسة والسبعين عامًا يكفي بالنسبة لجلاوزة أنقرة آنذاك؟!

كلا، وإنما سجنوه في مدينة أفيون عشرين شهرًا وعاملوه معاملة قاسية، فبالرغم من شيخوخته ومرضه، وبالرغم من الشتاء القارس، فقد تركوه وحده في زنزانة كبيرة عارية تسع ستين شخصًا، تركوه دون مدفأة بينما كان الثلج يتراكم على زجاج نافذته ودسوا له السم في طعامه، ولكن اللّه حفظه، وعندما حاول بعض طلابه إسعافه ومساعدته، ضربوهم ضربًا مبرحًا وأدميت أرجلهم على (الفلقة).

وفي هذا السجن أيضًا اهتدى على يديه كثير من المجرمين والقتلة، كما أنه استمر على التأليف. فألّف «الشعاع الخامس عشر» الذي هو رسالة «الحجة الزهراء» وتتناول الأدلة القاطعة على وجود اللّه سبحانه وتعالى ووحدانيته وعلى صدق نبوة محمد ﷺ.

❑ يقول بيرام يوكسل الذي خدم الأستاذ طوال حياته:

«كانت كتابة رسائل النور والانشغال بها شغلنا الشاغل مع إخواننا من طلاب النور في السجن، فعندما كنا نقترب من ردهة الأستاذ في السجن نسمع صوتًا كدوي النحل يترنم ليلاً ونهارًا. إنها أصوات أذكاره وتسبيحاته وصلواته. كنّ نراقب أعمال الأستاذ عن كثب، وكان مصباحه يضاء خافتًا حتى في أوقات متأخرة من الليل. ألف في هذه الفترة الشعاع الخامس عشر الحجة الزهراء فكنا نمر بين حين وآخر من تحت شباك ردهته، وما إن يرانا حتى يرمي لنا علب الكبريت وفيها قسم مما ألفه من الرسالة. ونحن بدورنا نستنسخ سرًا نسخًا منها (son sahitler) (١/ ٣٨١)[1].

❑ وبعد خروج الشيخ من سجن أفيون سقط حزب الشعب الجمهوري

(١) المصدر السابق (ص ١٠٠).

الذي حارب الإسلام ربع قرن من الزمان.. فأتيح قدر ضئيل من الحرية فقام الشيخ بالتدريس الجماعي لرسائل النور إضافة إلى قيامه بدعوة ونصح السياسيين ورجال الحكم باتباع الإسلام والاسترشاد به، وبيان أن الطريق الصحيح الوحيد هو طريق الإسلام، وبقى ـ رحمه اللَّه ـ يصرف كل جهده لتربية النفوس وتقوية الإيمان وتذكير الناس باللَّه واليوم الآخر.

❑ وحاكموه في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٢م بسبب رسالته «مرشد الشباب» وهي رسالة تحاول إنقاذ الشباب والشابات من التيارات العديدة التي تعمل علي هدم بنية المجتمع ونخر جسمه.

❑ وحاكموه مرة أخرى أمام محكمة صامسون عام ١٩٥٣م بسبب مقالة له نُشرت في جريدة «الجهاد الأكبر» تحت عنوان «أكبر برهان» وطُبب مثوله أمام المحكمة وحال مرضه آنذاك دون حضوره المحاكمة.. لم يرحموه وهو في الثمانين من عمره.. بل لاحقوه على الدوام.

❑ وفي مرض الموت وكان في أورقة طلبوا منه مغادرة المدينة إلى أسبارطة فقال لمدير أمن المدينة: إنني الأن في الدقائق الأخيرة من عمري لا أستطيع الرجوع، وقد أموت هنا. إن وظيفتك الآن هي تهيئة الماء لغسلي بعد الوفاة.. وكانت الوفاة في نفس اليوم الأربعاء الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ (٢٣ مارت ١٩٦٠م) وورى جثمانه الطاهر في مقبرة «أولو جامع».

*** للَّه در النورسي:**

للَّه در النورسي الذي حمل في يده سراج الهداية وسط أعتى العواصف دون أن تلين له قناة أو تفتر له همة.. إن للحق ساعداً لا ينثني ووجه لا يتراجع، وللنورسي علم لا يلتبس، وكلام لا يسكت وقلب لا ينخدع.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن مضايقة أهل الدنيا لي، ليست ناشئة من انشغالي بالسياسة لأنهم يعرفون جيدًا أني لا أتدخل في الأمور السياسية، بل أنفر منها، فهم يعذبونني بسبب ارتباطي بالدين وتمسكي بأهدابه، أي أنهم يعذبونني ـ بشعور وبغير شعور ـ إرضاءً للزندقة. لذا فإن مراجعتهم تعني إبداء الندامة عن الدين، وملاطفة لمسلك الزندقة، فضلاً عن أن القدر الإلهي العادل سيعذبني بأيديهم الأثيمة إن التجأت إليهم أو راجعتهم؛ لأنهم يضايقونني لتمسكي بالدين، بينما القدر الإلهي يضايقني لنقائصي وقصوري في التقوى والإخلاص ولتزلفي أحيانًا إلى أهل الدنيا. فلا نجاة لي إذن من هذه المضايقات في الوقت الحاضر. إذ لو راجعت أهل الدنيا لقال القدر: يا أيها المرائي! ذق جزاء مراجعتك هذه، وإن لم أراجع أهل الدنيا قالوا: إنك لا تعترف بنا فلازم المضايقات».

أيها التعساء! ماذا فعلت بكم، وما الذي أفعله بحقكم؟ إنني أسعى لإنقاذ ايمانكم وإبلاغكم السعادة الأبدية، يبدو أن خدمتي لم تخلص بعدُ للَّه، لذا يولد خلاف المأمول.. وأنتم نظير ذلك تؤذونني في كل فرصة سانحة، فلا ريب أننا سنتحاكم في المحكمة الكبرى.. أقول: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل. نعم المولى ونعم النصير. الباقي هو الباقي»[1].

*** النورسي يقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام حتى بعد موته:**

رحم اللَّه النورسي عاش مجاهدًا في سبيل اللَّه، وقضى ثمانيًا وعشرين عامًا من حياة النفي والسجن والمضايقات التي لا تنتهي، لكنه استطاع وحده ـ بفضل من اللَّه ـ أن يهز تركيا من أقصاها إلى أقصاها حتى أن هذا الرعب لم

(١) رسائل النور ـ المكتوبات (٢) ـ ذيل المكتوب السادس عشر للنورسي (ص٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥) ـ دار سورلر للنشر.

ينته بوفاته بل بقي يخيفهم وهو في مثواه الأخير!

❑ قال الشيخ عبدالمجيد النورسي شقيق الشيخ سعيد النورسي في مذكراته: «في بداية شهر تموز أي بعد مرور خمسة أشهر على وفاة شقيقي جاءني ظُهر أحد الأيام شخص عرفت فيما بعد أن اسمه إبراهيم بروكسل وأنه رئيس شعبة الأمن قائلاً بأن الوالي يستدعيني، فذهبت معه إلى بناية الوالي حيث شاهدت ثلاثة من جنرالات الجيش مع الوالي، كان أحدهم «جمال نورال» والآخر «رفيق تولكا» خاطبني «جمال تورال» قائلاً:

«إن زوّار عديدين من الولايات الشرقية والجنوبية يأتون لزيارة شقيقكم، وكما تعلمون فإننا نعيش ظروفًا دقيقة، لذا فإننا نريد أن ننقل شقيقكم ـ بمعاونتكم ـ أيضًا إلى أواسط الأناضول، فنرجو توقيع هذه الورقة».

ومدّ إلي بعريضة على لساني، قرأتها ثم قلت:

«ولكني لم أطلب هذا.. أرجوكم دعوه يرتاح على الأقل في قبره، فأصروا على موقفهم، وقالوا بأنه لا بد من التوقيع».

وبعد التوقيع توجهنا إلى المطار حيث أقلتنا طائرة عسكرية إلى أورقه، وقام الجنود بهدم القبر وإخراج التابوت منه وفتحو التابوت، ووجدوا الكفن سليمًا، وكأنه قد توفى بالأمس وعندما كشف الطبيب الكفن عن وجهه كانت هناك شبه ابتسامة على وجهه، وذهبوا بالتابوت إلى المطار بعد فرض حظر التجول في المدينة، وهناك نقل في طائرة إلى «اسبارطة» حيث دفن في مكان ما لا يزال مجهولاً». ـ رحم اللّه ـ النورسي فقد تمنى في وصيته لتلاميذه عدم معرفة مكان قبره»[1].

* * *

(١) سعيد النورسي للصالحي (ص١٣٤ ـ ١٣٦).